مجموعة البحث في تاريخ المجال والسكان بالغرب الإسلامي

تحت إشراف

محمد القبلي

جوانب من تاريخ المجال والسكان بالمغرب



مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية

الدار البيضاء 1998

مجموعة البحث في تاريخ المجال والسكان بالغرب الإسلامي

تحت إشراف

محمد القبلي

جوانب من تاريخ المجال والسكان بالمغرب



مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية
الدار البيضاء 1998

المحتويات

■ الإيداع القانوني : 1997/1608

■ ردمك : 7-5-9731-9981

■ الإخراج الفني وتصميم الغلاف : عبد الواحد الرافعي

شارع الكورنيش - عين الذياب - 20050 الدار البيضاء
الهاتف : 30 10 39/27 10 39 (2-212)
الفاكس : 31 10 39 (2-212)

تنبيه

نأسف لعدم توصلنا بنصوص عدد من السادة الأساتذة الذين شاركوا في اللقاء الأول لمجموعة البحث في تاريخ المجال والسكان بالغرب الإسلامي، وهم :

- علي صدقي
- عمار أكراز
- أحمد التوفيق
- عبد العزيز توري
- بيتريس كرسيي
- عبد اللطيف فضل الله
- عبد اللطيف بنشريفة

تقديم

الكتاب الذي نضعه اليوم بين يدي القارئ هو ثمرة تعاون بين مجموعة البحث في تاريخ المجال والسكان بالغرب الإسلامي وبين مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية التي اختارت لنفسها أن تجعل من حيز الغرب الإسلامي مجالا متميزا يحظى من قبلها بتشجيع فائق واهتمام مستمر. أما مادة الكتاب فإنها تتشكل من المساهمات التي قدمها عدد من أعضاء المجموعة في اللقاء الأول الذي نظم برحاب المؤسسة في الدار البيضاء يومي 7-8 أبريل 1995.

وإذا كان التحضير للقاء المذكور قد تطلب أكثر من سنة من العمل والتنسيق الجماعيين، فذلك يعود بالأساس إلى الرغبة في صقل مضامينه الأساسية وإعطاء الألفاظ مدلولا فعليا فاعلا ومحتوى. ذلك أن قضية المجال والسكان لا تعني أي علم خاص وإنما تعني بوجه أو بآخر كل علم. صحيح أن المصب الجامع لمختلف الجداول هنا مصب ينتسب أساسا إلى التاريخ ، غير أن النسبة التاريخية لن تستقيم بالقياس إلى توجهنا إلا إذا أخذت من زاويتها الشمولية المستوحاة مما يعرفه البحث عموما من حركية وتوثب دائب نحو الأخذ والعطاء.

أجل، يعلم الجميع أن الساحة الجامعية في المغرب قد عرفت نشاطا مكثفا في مجال البحث العلمي بهذا المعنى الواسع المتفتح. ومما يلاحظ اليوم أن هذا التوجه قد أدى إلى بداية ظهور ما يمكن اعتباره نوعا من التلاقح والإخصاب رغم ما يمكن أن يكون قد اعترى العملية بين الفينة والأخرى من مشوبات مسطحة للغاية المتوخاة من مبدإ تداخل العلوم. وبالتالي فإن من أهم ما قصدته المجموعة هو محاولة ممارسة التحاور العلمي الواعي بالحدود والإمكانيات بصدد موضوع يقتضي نظريا حضور سائر العلوم. وهكذا فإن الخط المرسوم يقتضي منطقيا أن لا نقتصر على التعاون مع العلوم الإنسانية والإجتماعية المعتادة وأن نعمل على الإصغاء لنتائج البحث في مجال العلوم الطبيعية وغيرها من العلوم البحتة والتجريبية كذلك. وواضح أن هذا الاختيار مستمد أساسا من طبيعة الموضوع نفسه. وواضح أيضا أن المطمح يكمن في مقاربة الإنسان من حيث أنه كائن حضاري مقيم بمجال معين له ما له من اللوازم والخصوصيات المؤثرة التي لا تكاد تستحضر حتى الآن بأسلوب معبر مندمج مع الصيرورة التاريخية بوجه عام. وإذ لم يكن من الممكن الانتظار أكثر بغية إشراك المزيد من التخصصات المتصلة بالموضوع المؤسس، فلقد حاولت المجموعة أن تعكس توجهها المنهجي في التركيبة الحالية لنواتها كما حرصت على إبراز نفس التوجه في المادة العلمية للقاء الأول الذي نتشرف اليوم بوضع أعماله بين يدي القارئ.

معلومات سكنية في مصادر إنجليزية وأمريكية

محمد أبو طالب

من أهم العناصر المكونة لكتابات زوار المغرب الإنجليز والأمريكيين أخبار عن السكان تصنيفا وإحصاء، كما هو الشأن بالنسبة لمراجع جنسيات أخرى. ومما تتعرض له مختلف مرافق الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية لهؤلاء السكان من مختلف الفئات وفي مختلف المناطق. وفي غالب الأحيان، يذكر أصحاب التقارير والمؤلفات مصادر معلوماتهم، حيث يستندون على سجلات القنصليات وما نشر قبلهم، كما يقومون أنفسهم بعمليات جرد كثيرا ما تنبني على تقديرات يطرح بعضهم تساؤلات حول صحتها. وسنتناول في هذا العرض الوجيز نماذج محدودة من تلك الكتابات، إلى حدود بداية القرن العشرين.

كتاب جيمس رايلي James Riley[1]

جيمس رايلي بحار أمريكي تحطمت باخرته قرب شاطئ طرفاية سنة 1813 حيث أسر هو وجميع رفاقه. ويقدم لنا الكتاب مجموعة من المعلومات حول الصحراويين وغيرهم من الأهالي، كما نرى في هذا التصنيف.

1 - أنماط السكان

عرب Arabs، مغاربة Moors، يهود Jews، زنوج Negroes. كما هناك القاطنون الأجانب من قناصلة وأطباء وتجار وبحارة، منهم :

Don Pablo Riva ، John Foxcroft ، Wilshire ، طبيب يهودي من أصل روسي، الضابط Wallace، ربان سفينة إنجليزية تحمل اسم Brig Pilot.

وعن اجتماع أهل المنطقة الصحراوية يعطينا وصفا دقيقا لكيفية المجلس :

«جلس السكان القرفصاء على الأرض في شكل دائرة للتشاور في أمرنا» (ص. 77)[2].

2 - وصف سكان الصويرة (ص. 332)

ما يقرب من ست وثلاثين ألف نسمة : ثلاثين ألف مسلم وستة آلاف يهودي.

ويقابل عملية نقل الأسماء المغربية هذه محاولة تلفظ المغاربة بأسماء الأجانب. فاسم الأسرى Horace مثلا ينطق Hoh Rais أي «هُوَ رَايس» كما ورد في نفس المصدر.

3 - لغة التخاطب

ا - نظرا لعدم معرفة الزوار للغة العربية يتم التفاهم عن طريق الإسبانية أو بالإشارات.

«ولو انه كان يتكلم لغة لم اكن أعرفها، كان يتحدث في تمام الوضوح ويخرج أصواتا شبيهة بالإسبانية، ولم أفهمه إلا بواسطة الإشارات» (ص 77)[3].

ب - كما يتم التفاهم بخليط من العربية والإسبانية، كما ورد ذلك في وصف سيدة :

«كانت زوجة حصار تمار [Tamar] تبدو امرأة عادية في ذكائها، وكانت تخاطبني بإسبانية مذبذبة فيها مزيج من العربية.» (ص. 163)[4].

ج - وعن طريق الترجمة العفوية يقوم بها أحد المرافقين المسلمين :

«عندما كان سيدي محمد يقدم لي المعلومات الآتية كان الرايس يترجم لي الى الإسبانية الفقرات التي لم أدركها تمام الإدراك بالعربية، وتمكنت هكذا من فهم الحديث كله.» (ص. 230)[5].

د - وعن طريق الترجمة الرسمية يقوم بها ترجمان يهودي موظف مع القنصل ويلشر Wilshire في الصويرة (ص. 298)[6].

4 - وصف الصلاة

«في البداية اغتسل الجميع بالرمل عوض الماء ثم التفوا في قماش قبل الوقوف في اتجاه المشرق. وبعد ذلك تقدمهم سيدي وأخذ يركع مرتين مكررا "الله أكبر" مرتين في كل ركعة، ثم يسجد واضعا رأسه على الأرض مرتين، وعندما يقف يكرر "ها الله أشهد أن محمدا رسول الله" ثم يركع مرتين ويسجد من جديد سجدتين ويقول ثلاث مرات "الله أكبر". وكان الحاضرون يتبعونه في جميع حركاته ويرددون ما يقوله حيث كانوا يرقبونه وهو واقف أمامهم. وبعد ذلك يقوم بأداء صلاة مطولة والآخرون يرددون ما اكتشفت أنه جزء من القرآن، ثم يشرع الجميع في التغني بنشيد ديني أو أشعار مقدسة لمدة طويلة، وعند نهاية هذه الطقوس تنحني الوجوه من جديد نحو الأرض وتختتم الصلاة.» (ص. 99)[7].

كما يلاحظ، يتسم هذا الوصف بعدم الدقة في الغالب، نتيجة سوء فهم الكاتب.

5 - دور المرأة في الحياة الاجتماعية والسياسية

«وتحكي هذه السيدة عن إنقاذها لحياة عدد من الإسبان إثر تحطم سفينتهم على الشاطئ وأنها عبرت مع أحد أعضاء الطاقم إلى جزيرة لانصروطي، إحدى الجزر الخالدة، لاقتناء بعض المواد التي كان ربان السفينة قد وعد والدها بها، حيث كان يحجز ثلاثة آخرين إلى حين إنجاز الوعد، وبعد ذلك أعادها إلى مقرها. ثم صورت لي طريقة بناء منازل لانصروطي مع وصف قلعها والمدافع والأسلحة الموجودة بها، وحيث كان وصفا في غاية الدقة لم أشك لحظة في أنها زارت الأماكن. ثم تحدثت عن سوء الأوضاع في ذلك البلد مؤكدة لنا أننا لن نموت جوعا ما دمنا في رفقتها.» (صص. 163–164)[8].

6 - كتابة الأسماء من أماكن وأعلام وغيرها

الإسم	المقابل
سوس	Suze, Suse
الصحراء	Zaharah
وادي نون	Windnoon
شتوكة	Stuka (وصف دقيق : ص. 262–263)
اكادير	Agader, Santa Cruz
حاحة	Hah hah
قبيلة بني أسد (؟)	Moors sons of Lions (ترجمة حرفية)

Duquella	دكالة
Waldeleim	أولاد دليم
Marocksh	مراكش
Swearah ; Mogadore	الصويرة
Rais Bel Cossim	الرايس بن القاسم أو بلقاسم
Sidi Hamet	سيدي أحمد
Seid	سعيد
Sheick Sulmin	الشيخ سليمان (؟)
Bickri	بكري أو ابو بكر
Kesh-bah	قشباح (؟)
Omar el Milliah	عمر المليح
Bel Mooden	بن المؤذن
Sarah	الزهراء
Ezimah	عزيمة
Zooerga	زورق
Sfenah	سفينة
moslemin, Mussulmen	مسلمون
MBahar	البحر
Sooltaan Moolay Solimaan	السلطان مولاي سليمان
Sidi Ishem	سيدي هشام
"Fire-arms" (Celibeatahs)	نوع من السلاح
el skine	سكين
gzlabbia	جلابية
shwerry	شواري
Cubbab	كباب
Shallah	إن شاء الله

«بلاد سلطان إفريقي : رحلات بالمغرب» لوالطر هاريس Walter Harris (1889)[9].

زار هاريس المغرب أول مرة في سنة 1885 بصفة مراسل جريدة الطايمز *Times* اللندنية لتغطية بعثة جون درامند هاي لدى السلطان الحسن الأول. وبعد ذلك استقر بالمغرب حيث قام إلى جانب عمله الصحفي بخوض مغامرات سياسية كتب عنها الكثير. ونتناول هنا أول كتاب له.

ومن أهم المعلومات التي توفرها جل المصادر جرد العاملين في السياسة والدبلوماسية من أجانب ومغاربة، منهم على الخصوص :

1. الهيأة القنصلية، مثل الوزير المفوض البريطاني Sir William Kirby-Green ونائب القنصل في الجديدة Redman ومساعد الوزير Carlton القائد هاري ماكلين Harry Maclean وأخوه آلن Capt Alan Maclean (ص. 185)،
2. الممثلون اليهود المغاربة مثل بن شيطاح، النائب القنصلي في أصيلة،
3. وانطلاقا من طنجة، يقدم هاريس معلومات مفصلة عن القاطنين بها.

ا - المغاربة

يشكل سكان طنجة أهمية أكبر من البنايات، وهم من كل جهات المغرب. هناك الكناوة القادمون من تمبوكتو والذين يرتدون قبعات وقلادات من محار ويقرقبون آلاتهم. وهناك السوسيون بثيابهم الأزرق أو جلابيبهم السود القهوية.

«وهناك الجبليون بقاماتهم الطويلة وبشرتهم الحسنة ولمعان العيون الزرق عند البعض، وهؤلاء أجمل المغاربة على الإطلاق. وهناك أهل منطقة الغرب الخصبة الملتفون في ملابسهم الخشنة، وهم يتحدثون البربرية، وهي لهجة غريبة تختلف تماما عن العربية، وتمتاز بصفة حنجرية. وهؤلاء هم سكان المغرب الأصليون وقد كانوا مسيحيين فيما مضى. ووسط هذا الخليط يتجول أثرياء المدن على متن جيادهم أو بغالهم المزدانة.» (ص. 13)[10].

ب - الأجانب

«يوجد الإسبانيون في كل مكان، أكثرهم سكارى وكلهم في حالة بائسة. وليس هناك أكثر أناقة من إسباني الطبقة العليا. إلا أن طنجة قد أصبحت مكانا لا يطاق العيش فيه بسبب شظايا فئة مجرمة من السكان المتدفقة عليه بضغط كبير.
واعتقد أن هؤلاء يأتون بحثا عن عمل لم يجدوه وهم جياع. وهكذا أصبحت طنجة مليئة بالسراق بعد أن كانت أسلم بقعة للإقامة في العالم.» (ص. 14)[11].

ج - مكناس، مع اهتمام كبير بالجالية اليهودية :

«كانت أفواج من اليهود الوسخين يهجمون على منزلنا بدون انقطاع محاولين إقناعنا باقتناء بضائعهم الرديئة بأثمان باهضة وهم يصرخون بأصوات مزعجة، مما جعلنا نأمر الجندي المرافق لنا بعدم السماح لأي ابن من بني إسرائيل بالولوج. والملاح في مكناس شبيه بملاحات أخرى من حيث الوسخ رغم أن بعض اليهود كانوا يمتلكون بيوتا جميلة. وعلى ما يبدو، فإن خشونة لباس اليهود المكناسية تعزى إلى التضافير الذهبية والقبعة العالية*، إضافة إلى الخيوط الحريرية السوداء المقلدة للشعر.» (ص 83)[12].

* يقصد ما يعرف بالحنطوز.

4. وصف النساء في مدينة الجديدة :

«لابد من إعطاء وصف للباس البدوية المغربية نظرا لغرابته بالنسبة لإنجلترا، فإنه يتكون نوعا ما من صاية وصدرية في آن واحد حول الكتفين وقد ربط الجانبان بمقبضين** فضيين تجمعهما سلسلة فضية فوق الصدر. ويشد اللباس عند الخصر بحزام ملون من حرير أو قطن في غالب الأحيان، وفوقه ترتدي المرأة لحافا (حايكا) من الصوف، مزخرفا أحيانا بخطوط ملونة. أما لباس المدينيات فيمتاز بضخامة قطع حريرية مطروزة، إضافة إلى قلادات وأقراط فضية وذهبية.
كل النساء يعرفن بالتبرج رغم عبء قلاداتهن وأقراطهن وأسورتهن الثقيل. بعد ترتيب شعرهن في ضفيرتين طويلتين يعقدنهما بخيط أسود يزيد في طولهما، أما العيون والخدود فكأنها اختنقت بالصياغة.» (هاريس، صص. 172–173)[13].

وبخصوص تقدير عدد السكان يعترف البعض صراحة بوجود عراقل كما جاء على لسان فيليب طروطر Philip Trotter في كتابه «بعثتنا إلى قصر المغرب»

«إنه من الصعب تقدير عدد سكان لمدينة كهذه، والتي تحتوي على ما بين خمسة آلاف وثلاثين ألف نسمة حسب مجموعات من المسافرين. ومن خلال حديث مع يهودي موسوم بالذكاء كان عرض علينا خدمته حيث كان يعرف قليلا من الفرنسية، علمت أن التقدير المذكور شمل ألفا وسبعمائة يهودي، واعتقادي أن الأرقام المذكورة قريبة من الحقيقة.» (ص. 40)[14].

ورغم التناقضات التي يعترف جاكسن بوجودها في تقارير مختلف الزوار، يكاد يجزم من أنه حصل على أرقام قد تكون أقرب من الواقع بناء على مصادر توحي له بالثقة. وفيما يلي جل المناطق التي أحصيت مع مطلع القرن التاسع عشر[15].

الموقع	السكان
مدينة مراكش	270.000
فاس القديمة والجديدة	380.000
مكناس	110.000
مولاي إدريس زرهون	12.000
تطوان	16.000
طنجة	6.000
أصيلة	1.000
العرائش	3.000
سلا	18.000

** إصفناص.

الرباط	25.000
الدار البيضاء	1.000
أزمور	1.000
الجديدة والوليدية	3.000
الصويرة	10.000
أكادير	300
تارودانت	25.000
ماسة	1.000
منطقة الريف	200.000
منطقة الغرب	200.000
بني حسان	300.000
تادلة	450.000
دكالة	966.000
عبدة	500.000
شياظمة	550.000
حاحة	708.000
درعة	350.000
إداوتانان	10.000
هوارة	80.000
شتوكة	380.000
آيت باعمران	300.000
وادي نون	200.000

ومع كل هذا فإن جاكسن لا يخفي تحفظ القائلين باحتمال مبالغة في هذه الأرقام، إلا أنه يعزو ذلك لانتشار السكن في القرى البعيدة عن الطرق الرئيسية، مما يجعل تقديرات بعض الزوار أقل من تقديراته.

إحصاءات في مراجع أخرى

المكان	السكان	السنة	المرجع
فاس	84.000 كانونا	1620	John Smith, *True Travels in Europe and Affricke*, p. 47.
فاس	37 اجنبيا	1910	G.H. Selous, *Appointment to Fez*, p. 121.
فاس	150.000	1943	Campell, *With the Bible in north Africa*, p. 3.
مجموع البلاد	14.886.600	1800	J.G. Jackson, *An Account of the Empire of Marocco*, p. 90.

المكان	السكان	السنة	المرجع
مجموع البلاد	7.000.000	1801	J.D. Hay, *A memoir*, p.167.
تطوان	8.000	1806	John Buffa, *Travels through the Empire of Morocco*, p. 72.
القصر الكبير	26.000	1863	Thomas Hodgkin, *Journey to Morocco*, p. 72.
القصر الكبير	12.000	1880	Philip Trotter, *Our Mission to the Court of Marocco*, p. 40.
أصيلة	1.000-800	1889	Walter Harris, The Land of an Africain Sultan, p. 44.
الجديدة	10.000-8000	1901	John Geddes, *The Reaper* ; August 1901, p. 156.
منطقة الجنوب	7.950.000	1925	Walter Harris, *France, Spain and the Rif*, p. 31.
منطقة الشمال	766.000	1925	Walter Harris, *France, Spain and the Rif*, p. 22.
شفشاون	6.000 أو 7.000	1925	Walter Harris, *France, Spain and the Rif*, p. 112.

والغريب أن الإحصاءات تنتقل من مصدر إلى مصدر دون التأكد من صحتها أو عدم صحتها. فالمعلومات الواردة عند جاكسون توجد في مصادر لاحقة[16].

بعض الشخصيات

يقدم والطر هاريس Walter Harris في كتابه المغرب كما كان *Morocco that Was* [17] وصفا لعدد من الشخصيات، منها عمر الزرهوني أو بوحمارة الذي كان كاتبا لدى القائد حمو حسن من بني مطير قبل خوضه حملته الانفصالية (ص. 66). ويزعم هاريس أنه أثناء احتجازه من قبل قوات الريسوني في الزينات سنة 1903، عثر على ظهير تعيين بوحمارة للريسوني عاملا على قبائل الشمال، وكانت الوثيقة بتوقيع «امحمد بن الحسن» (ص. 75).

وقد خصص للشريف الريسوني جزءً كبيرا من الكتاب (من ص. 179 إلى ص. 263)[18]. كما يشير إلى قائد عصابة أخرى، هو ولد بقاشة الذي حاول احتجازه مرة أخرى والذي قتل في اشتباك عنيف (ص. 77).

الشريف ولد بوالعيش الذي احتجز عضوين من طاقم السفينة Assistance الإنجليزية في منطقة الأنجرة هما كراوثر Growther وهاطن Hatton (ص. 79).

مولاي عبد السلام العمراني : أحد قياد جيش مولاي عبد العزيز، والذي انهزم أمام قوات بوحمارة يوم 22 دجنبر 1902 (ص. 89).

طنجة أيام الاحتلال الإنجليزي

أثناء الاحتلال الإنجليزي لطنجة (1662-1684)، توافرت معلومات حول فئات سكان المدينة من مختلف الجنسيات، منهم برتغاليون وإسبان وهولانديون وفرنسيون وإيطاليون. أما البريطانيون فكان عددهم ألفان من الجنود السكوطلانديين والإرلانديين، إضافة إلى ستمائة مدني من بين التجار. وعن اليهود الذين كانوا يقطنون بالمدينة باستمرار فقد طردوا أحيانا ثم سمح لهم بالعودة.

معلومات أخرى

ومن بين المعلومات التي توفرها بعض المصادر إحصاء العاملين في ميادين مختلفة، منهم على الخصوص :

1. المبشرون،
2. المترجمون، خاصة الموظفين بالقنصليات، مثل اليهودي المغربي ناهون Nahun[19]،
3. اللفيف الأجنبي، ويتكون من الأجانب المنخرطين في الجيش الفرنسي أثناء الحماية. وقد كان عددهم سنة 1933 يناهز عشرة آلاف موزعين على مناطق فاس ومكناس ومراكش وتارودانت. وكانوا من مختلف الجنسيات احتل فيها الألمان أكبر نسبة[20].

هوامش

1. *An Authentic Narrative of the Loss of the American Brig Commerce.*
2. «The council were deliberating about us ; and having talked the matter over a long time, seated on the ground, with their legs crossed under them in circles of from ten to twenty each...» (p.77).
3. «Though he spoke a language I was unacquainted with, yet he explained himself in such a plain and distinct manner, sounding every letter full like the Spaniards. that with the help of signs I was able to understand his meaning...» (p. 77).
4. «Hassar's wife, whose name was Tamar, and appeared to be an uncommonly intelligent woman, addressed me in broken Spanish and Arabic mixed...» (p. 163).

5. «Sidi Mohammed... gave the following relation, while Rais translated into Spanish for me such parts as I did not perfectly understand in Arabic, by which means I was enabled thoroughly to comprehend the whole narrative.» (p. 230).

6. «When we came to the door, we were ushered into a kind of entry–way, which served as an audience chamber, by Mr. Willshires Jew interpreter...» (p. 298).

7. «They all first washed themselves with sand in place of water, then wrapping themselves up with their strip of cloth and turning their faces to the east, my old master stepped out before them, and commenced by bowing twice, repeating at each time "*Allah Houakabar*"; then kneeling and bowing his head to the ground twice; then raising himself up on his feet, and repeating, "*Hi el Allah Sheda Mohamed Rasool Allah*", bowing himself twice; and again prostrating himself on the earth as many times, then "*Allah Houakabar*" was three times repeated. He was always accompanied in his motions and words by all present who could see him distinctly, as he stood before them. He would then make a long prayer, and they recited altogether what I afterwards found to be a chapter of in the Koran; and then all joined in chaunting or singing some hymn or sacred poetry for a considerable time. This ceremony being finished, they again prostrated themselves with their faces to the earth, and the service concluded.» (p. 99).

8. «She said she had saved the lives of some Spaniards who had been wrecked on the coast a great many years ago; that a vessel came from them, and that she went to Lanzarote (one of the Canary Islands) to get some goods which the Spanish captain promised to deliver her father, who kept three of the men until the Spaniard should have fulfilled his contract and brought her back. She represented to me the manner in which the houses in Lanzarote were built, and described the forts and batteries with their cannon, c. so very clearly and accurately, that I had no doubt but that she must have been there also. She said Lanzarote was bad country, and told us, we should not die with hunger while we remained in her company.» (pp. 163-164).

9. walter Harris .*The Land of an African Sultan.*

10. «But it is the people more than the buildings that form the interest of Tangier. From all over Morocco they come. The Guenouah, from Timbuctoo, with their head–dresses of shells and strings and their clanking cymbals. The Susi in dark blue linen, or black and brown jelabas, the mountaineers tall and fair, many with bright blue eyes, and by far the handsomest of the Moorish peoples. The men from the Gharb, or fertile plains, enveloped in the numerous folds of their coarse haiks, speaking with a strange accent, the Berbers, with their guttural tongue, absolutely different from Arabic. These are the original inhabitants of Morocco, and were Christians once. Amongst all this medley pass and repass the rich town Moors on horse or mule, gaudily caparisoned...» (p. 13).

11. «Everywhere can be seen Spaniards, many of them half–drunk, all of them objectionable. There is nobody more charming than a Spaniard of the upper classes, but the dregs of the criminal population that they are now so vigorously pouring into Tangier are rendering the place unbearable. They come, I believe, in the hopes of getting work. They get none. They starve. Tangier, that once was a safe place to reside in as any spot in the world, is full of burglars...» (p. 14).

12. «Our house was constantly invaded by troops of dirty Jews who tried to sell us poor curiosities at perfectly impossible prices, and whose cringing, whining ways and tone thoroughly disgusted us. Finally we ordered our soldier not to allow a single son of Israel within our door. The Mellah, or Ghetto, at Mequinez is as dirty as anywhere, through some of the Jews' were fine houses. The Mequinez Jewesses' dress is perhaps hideous, the tawdry gold braiding and high cap, with its black silk imitation hair...» (p. 83).

13. «The Moorish countrywomans dress, as one little known in England, is worth describing. A loose kind of Skirt and body in one is worn hanging from the shoulders, caught there with two silver brooches, joined to each other by a silver chain that hangs across the chest. This garment is fastened at the waist with a coloured band, either of silk or cotton, generally the latter, while all over is worn a thick woollen haik, sometimes ornamented with coloured stripes. The costume of the town's women is much more gorgeous, their garments being of silks and brocades, while they hang their ears and necks with silver and gold jewellery ».
«All the women are noticeable for their love of display, and the weight of their necklaces, earnings and bracelets must be overpowering. The hair is worn in two long plaits, lengthened with interwoven black thread, while the eyes and cheeks are smothered in paint». (Harris, *The Land of an African Sultan*, pp. 172-173).

14. «It is difficult to estimate the population of a town of this sort, and travellers have variously put it at from 5000 to 30000. In a conversation I had with a rather intelligent Jew, who could talk a little French, and who attained himself to us in the town, I learnt that this estimate was, including 1700 Jews, which numbers I should thinks were pretty near the mark.» Trotter, *Our Mission to the Court of Morocco*, (p. 90)

15. J. G. Jackson, *An Account of the Empire of Morocco*, (p. 90).

16. تاريخ دول المغرب وأوضاعها الحالية *History and Present Condition of the Barbary States* للقس الأمريكي مايكل راسل Michael Russell (1842، ص. 280).

17. Routh .*Tangier, Englands Lost Atlantic Outpost*, 1912.

18. نذكر هنا أن الصحافية والكاتبة الأمريكية روزيتا فوربز Rosita Forbes خصصت سنة 1924 كتابا كاملا للشريف الريسوني.

عنوان الكتاب : الريسوني، سلطان الجبال *El Raisuni, the Sultan of the Mountains* وربما يعتبر المرجع الوحيد الذي يشمل نبذة ضافية عن حياة القائد كما أملاها هو نفسه للكاتبة.

19. Trotter, *Our Mission to the Court of Morocco*, p. 132.

20. Ward Price, *With the Foreign Legion in Morocco*, 1934 ; pp. 34-35.

تاريخ المجال المغربي من 7000 إلى 3000 ق.م.

عبد المالك بنعبيد

1 - مقدمــــــة

إن من أهم نتائج علوم التاريخ والبيئة والنبات والحيوان، أن المجال المغربي المتعلق بالأنظمة البيئية عرف تحولات كبيرة، كما هو الشأن لجل مناطف العالم، وذلك راجع إلى التغيرات الجذرية التي طرأت على المناخ حتى بعد نهاية الفترة الأخيرة من الحقبات الجليدية بشمال المتوسط أو المطرية جنوبه، والمسمات بالفورم Wurm والتي انتهت حوالي 12000 سنة ق.م.

يتطرق موضوعنا إلى هذه الفترة الممتدة من ما بعد المطرية إلى يومنا هذا مع التركيز على المرحلة الممتدة من 7000 إلى 3000 سنة ق.م. الموافقة للعصر الحجري الحديث الذي يسبق مباشرة بداية التاريخ.

ترتكز الأبحاث المتعلقة بالأزمنة ما قبل التاريخ على دراسة الأشكال الجيومورفلوجية وبقايا الكائنات من إنسان ونبات وحيوان.

فمن أهم الأبحاث في هذا الميادان نجد أن تلك التي اتخذت من حبوب اللقاح Palynologie والفحم الموجود في التربة Pédoanthracologie أو أغمدة الحشرات هي التي

أعطت أهم النتائج لأن هذه البقايا تعتبر أفضل مرشد للتعرف على البيئة التي كانت تعيش فيها هذه الأحياء. والمناهج البحثية تتلخص في دراسة الأنواع النباتية أو الحشراتية التي تنتمي لها هذه البقايا المحفوظة بفضل أغشيتها غير القابلة للفساد في الرسوبات المتراكمة في المخثات (Tourbières) أو المستنقعات أو البحيرات أو بعض الكهوف. وبالتعرف على هذه الأنواع يمكن استنتاج الظروف البيئية التي كانت تعيش فيها هذه الكائنات وذلك بالمقارنة مع متطلباتها الحالية. وفي هذه الحالات يتم تأريخ كل مستوى من الرسوبات بفضل الكاربون الاشعاعي (Carbone 14) وهكذا تم بوضوح رسم الخطوط العريضة للتاريخ لما بعد الحقبة الجليدية بأروبا الشمالية (ما بين الدانمارك وبلجيكا) بإبراز كامل للروابط التي تربط التقلبات والتعاقبات للفترات المناخية والأنظمة البيئية وأنشطة الإنسان المعاصر لها.

وأهم الاستنتاجات حول هذه التعاقبات في هذه المنطقة المذكورة أعلاه هي ما لخصها بونس (Pons, 1970) على الشكل التالي :

أولا : عصر الدرياس القديم (Dryas ancien) إبتداء من 12 000 سنة ق.م. مباشرة بعد الحقبة الجليدية الأخيرة يتميز هذا العصر بالتراجع التدريجي للجليد الذي مكن من تشكيل سهب باردة تسودها أنواع من النجيليات *Graminae* والسعديات *Cyperaceae* والشيح. وأهم نبات ميز هذا العصر هو نوع عشبي من الورديات (*Rosaceae*) يسمى درياس أوكتوبتالا (*Dryas octopetala*). تتخلل هذه التشكيلة أفراد قليلة من شجيرات الصفصاف (*Salix*) والبيتولا (*Betula*) التي تزداد تكاثرا بفضل الارتفاع التدريجي للحرارة حتى حدود سنة 10 300 ق.م. ثم يتلو ذلك انخفاض حراري كاف لاندثار هذه الشجيرات، حتى حدود سنة 9 900 سنة ق.م.

ثانيا : عصر آلرود (*Allerod*) ما بين 9 900 و8 800 سنة ق.م. الذي يعرف ارتفاعا حراريا مكن من ظهور حريجات من الصفصاف والبيتولا والصنوبر (*Pinus*) مع بعض الأنواع الشجرية الأخرى المتطلبة نسبيا للحرارة مثل شجرة

البندق (Noisetier : *Corylus avelana*) والسنديان أو البلوط (: Chênes *Quercus*).

ثالثا : عصر الدرياس الحديث *Dryas recent* ما بين 800 8 و300 8 سنة ق.م. الذي يصادف اجتياحا للبرودة القارسة لمدة قصيرة نسبيا لكن بشكل عنيف جعل الأنواع الشجرية تنقرض تماما.

رابعا : عصر ما قبل البوري أو قبل الشمالي *Préboréal* ما بين 8300 و6700 سنة ق.م. ترتفع خلاله الحرارة لتمكن من انتشار الغابات المكونة من البيتولا والصنوبر وأنواع أخرى تتطلب مناخا دافئا نسبيا.

خامسا : عصر البوري أو (الشمالي) (*Boréal*) ما بين 700 6 و500 5 سنة ق.م. تم خلاله انتشار واسع للغابات التي تسودها الأنواع الأليفة للحرارة نسبيا مثل البندق، والسنديان، والزيزفون (*Tilia*) والدردار (*Ulmus*).

سادسا : عصر الأطلسي (Atlantique) ما بين 500 5 و500 2 سنة ق.م. تميز بمناخ أمثل إذ ارتفعت الرطوبة والحرارة إلى درجة تجاوزت تلك التي تميز المناخ الحالي بالمنطقة. هذه الظروف البيئية المثلى وافقت الإنتشار الواسع لغابات المغث أو جار الماء (*Alnus*) التي أخذت محل الصنوبر كما تكونت غابات متنوعة من أنواع السنديان وخاصة النفضية منها (Chênes caducifoliés)، والدردار والزيزفون والمران (*Fraximus*). بسبب ذوبان الجليد القطبي والرطوبة، إرتفع سطح البحر واتسعت المستنقعات والمختثات بفعل كثرة الرطوبة.

سابعا : عصر شبه البوري أو شبه الشمالي (Subboréal) ما بين 500 2 و 800 سنة ق.م. : عصر ذو مناخ طغت عليه الميزة البحرية في نصفه الأول حتى حوالي 700 1 سنة ق.م. حيث ظهرت غابات الزان (Hêtre : *Fagus*) وانتشر الضغس (If : *Taxus*). ثم صار إبان نصفه الأخير أكثر قارية مما جعل البندق يعود وينتشر بصفة ملحوظة. لكن أهم ملاحظة في هذا النصف الأخير تتمثل في ظهور وانتشار أنواع الخلنج (Bruyère : *Erica*) الشيء الذي يفسر بداية

ممارسة الإنسان للزراعة والرعي في العصر الحجري، ممارسة تقوت في العصر البرونزي.

ثامنا : عشر شبه الأطلسي (Subatlantique) ما بين 800 سنة ق.م. والحاضر : عصر يعتبر أكثر ملائمة لغابات الزان والنيرية (Charme : *Carpinus*) بسبب انخفاض نسبي للحرارة وارتفاع الرطوبة. عرف هذا العصر ازدياد وتقوية أنشطة الإنسان التي ركدت في العصر الحديدي حتى حدود 300 سنة ق.م. قبل أن تتنامى مع بداية الحضارة السلتية.

نستنتج من هذه اللمحة الوجيزة عن العصور المتعاقبة في شمال أوروبا أن الأبحاث العديدة المنجزة في جنوب هذه القارة (BEAULIEU et al, 1979) وفي شمال افريقيا (BENTIBA et REILLE 1982 ; BERNARD et REILLE, 1987 ; REILLE, 1976, 1977, 1979) أثبتت تعاقبا متوازيا في أشكال المناخ من حيث تغيرات الحرارة والرطوبة، لا يختلف إلا في المستويات الحرارية التي تكون أعلى في اتجاه الجنوب، وبالتالي ظهور أنواع نباتية وحيوانية أخرى مختلفة عن تلك التي لوحظت في الشمال. ولهذا كان من الطبيعي الإحتفاظ بهذه المصطلحات لاستعمالها في المناطق الأخرى من العالم.

أما في ما يخص المغرب فإننا، قبل التطرق لوصف تاريخ المجال المغربي إبان هذه العصور نود تقديم لمحة وجيزة عن الأنظمة البيئية الحالية أو الممكن وجودها. وذلك للتمكن من المقارنة بين الماضي والحاضر.

2 – الأنظمة البيئية الحالية : (BENABID et FENNANE, 1994)

2 - 1 الريف والشمال الشرقي وتازكا :

– بيومناخ شبه رطب، ورطب، وجد رطب ومحليا شبه جاف.

– أنظمة غابوية من السنديان أو البلوط الفليني (Chêne liège : *Quercus suber*) والأخضر (Ch. vert : *Q. rotundifiola*) والقرمزي (Ch. Kermès : *Q. coccifera*) والزيني (Ch. zène : *Q. faginea*) والزغبي (Ch. tauzin : *Q. pyrenaica*) والعرعر البربري (Thuya de Berbérie : *Tetraclinis articulata*) والزيتون البري (Oléastre : *Olea oleaster*) والصنوبر البحري (Pin maritime : *Pinus pinaster*) وقليل من الصنوبر الحلبي

(P. d'Alep : *P. halenpensis*). تغطي القمم غابات من الأرز (*Cedrus atlantica* : *Cèdre de l'Atlas*) ومحليا بمنطقة شفشاون، يصادف الشوح (Sapin du Maroc : *Abies maroccana*).

2 - 2 الأطلس المتوسط والجهة الشرقية من الأطلس الكبير :

- بيومناخ شبه رطب، ورطب، ومحليا شبه جاف،
- أنظمة غابوية من البلوط الأخضر والزيني والأرز ومحليا العرعر البربري والأحمر (Génévrier rouge : *Juniperus phoenicea*) والفواح (G. thurifère : *J. thurifera*)
- أنظمة سهبية باردة من القتنات الشوكية (Xérophytes épineux).

2 - 3 سهول الغرب، والمعمورة، ودكالة، والشاوية، وعبدة، وتادلة :

- بيومناخ شبه جاف ومحليا شبه رطب،
- أنظمة من البلوط الفليني والعرعر البربري،
- أنطمة غابوية من الزيتون البري انقرضت بسبب الاجتثاث لفائدة الزراعة والرعي في النصف الأخير من عصرنا الحالي شبه الأطلسي.

2 - 4 الهضبة الوسطى :

- بيومناخ شبه جاف وشبه رطب،
- أنطمة غابوية من البلوط الفليني والأخضر والعرعر البربري ومحليا الزيتون البري.

2 - 5 الهضاب العليا للمغرب الشرقي :

- بيومناخ شبه جاف، وجاف،
- أنظمة غابوية من البلوط الأخضر والصنوبر الحلبي، والعرعر الأحمر والبربري،
- أنظمة غابوية أو شبه سهبية من البطم الأطلسي (*Pistacia atlantica : Pistachier de l'Atlas*) انقرضت بسبب الاجتثاث لفائدة الرعي والزراعة والحطب وصناعة الصابون،
- أنظمة سهبية من الحلفاء (Artemisia inculta : Armoise).

2 - 6 المنطقة الوسطى من الأطلس الكبير :

- بيومناخ شبه جاف وشبه رطب،

– أنطمة غابوية من البلوط الأخضر والعرعر الأحمر والفواح البربري وقليل من الصنوبر الحلبي،

– أنظمة سهبية باردة فوق قمم الجبال في القتنات الشوكية.

2 - 7 الحوز والرحامنة :

– بيومناخ جاف ومحليا شبه جاف،

– أنطمة شبه سهبية من الطلح المغربي (Gommier du Maroc : *Acacia gummifera*) انقرضت أخيرا بسبب الاجتثاث لفائدة الزراعة والرعي، والحطب.

2 - 8 الجهة الغربية من الأطلس الكبير، والشياظمة وحاحا، وسوس، والأطلس الصغير :

– بيومناخ شبه جاف ومحليا جاف،

– أنظمة غابوية أو شبه سهبية من البلوط الأخضر والعرعار الأحمر والبربري وأركان (Arganier : *Argania spinosa*) ومحليا سرو الأطلس (Cyprès de l'Atlas : *Cupressus atlantica*).

2 - 9 المناطق الصحراوية :

– بيومناخ جاف وصحراوي،

– أنظمة صحراوية مكونة من أشجار الطلح (*Acacia raddiana*, Gommiers : *A. ehrenbergiana*) وتايشط (*Balanities aegyptiaca*) وأتيل (*Maerua crassifolia*) والاتل أو الطرفاء (*Tamarix articulata*)،

– أنظمة سهبية تعيش في نجود الحمادة.

3 - تاريخ استيطان وتشكيل البنيات النباتية بالمغرب

جل الأبحاث في هذا الميدان (Quezel, 1989 ; Bernard et Reille, 1987) أكدت أن التنظيمات الحالية للبنيات النباتية المغربية نتجت عن التغيرات المناخية التي تلت الحقبة الجليدية الأخيرة. غير أن المنطقة عرفت بشكل مواز لهذه الظواهر الطبيعية كازدياد تدفئة المناخ، نمو وبروز حضارات نيوليتية حولت المجموعات البشرية من مرحلة الاعتماد على

الصيد والجني إلى مرحلة أخرى تقوم على الرعي والزراعة، الشيء الذي ترك أثرا عميقا في التوازن البيئي الطبيعي الذي تنظم وتقوى بفضل التدفئة التدريجية للمناخ.

وأهم معالم هذا التاريخ نسردها كما يلي :

3 - 1 الغابات شبه السهبية :

– تتميز هذه البنيات من تشكيلات شجرية من أنواع الصنوبر الحلبي والعرعر الأحمر والبربري وأركان وقليل من البلوط الأخضر. تكون هذه الأشجار متناثرة في سهوب من النجيليات والشيح.

– لوحظ في أواخر الدرياس القديم أن تشكيلات البلوط الأخضر أصبحت تلعب دورا كبيرا في هذا النوع من المجال.

– امتدت هذه التشكيلات إلى الشمال في العصور المطبوعة بالجفاف، وإلى أقصى الجنوب حتى الجبال الصحراوية (أدرار، الهجار...) إبان المناخ الامثل للعصر الأطلسي.

3 - 2 التجمعات شبه الغابوية :

– تتواجد بيوجغرافيا بين الصنف المذكور أعلاه والصنف الغابوي التالي.

– عرفت نفس الإمتدادات إلى الشمال أو الجنوب بكيفية متوازية للتجمعات الغابوية شبه السهبية.

3 - 3 التجمعات الغابوية :

– تكونت وتطورت بعد نهاية الحقبة الفورمية.

– غابات البلوط الفليني والأخضر الواسعة الانتشار حاليا لعبت دورا كبيرا في المجال المغربي إبان العصر البوري. ومع تطور أنشطة الإنسان ازدادت اتساعا وامتدادا على حساب غابات البلوط النفضية.

– غابات البلوط النفضية سادت المجال إبان العصر الأطلسي، قبل أن تتراجع فيما بعد بسبب الظروف البيئية غير الملائمة، بالإضافة إلى تطور أنشطة الإنسان.

– غابات الأرز لم يلاحظ وجودها في الأطلس المتوسط إلا منذ 4000 سنة قبل الحاضر (B.P. Before Present = المصادف لسنة 1950) بالرغم من أنها تواجدت في شكل بنيات جد كثيفة، في الجهة الشرقية من الأطلس الكبير منذ العصر البوري.

3 - 4 تشكيلات الماطورال

– تطورت واتسعت وانتشرت في الفترات التي تلت المراحل الجليدية ثم تراجعت في العصور الملائمة للغابات مثل الأطلسي إذ لم تستقر إلا في الأراضي الصخرية وأماكن أخرى خاصة بها.

– عرفت تطورا وانتشارا واسع النطاق في العصر شبه البوري ثم العصر شبه الأطلسي وذلك بسبب تكاثر وتطور أنشطة الإنسان وخاصة استعماله الحرائق للزراعة أو تحسين الرعي أو غير ذلك.

3 - 5 التشكيلات السهبية

– تطورت واتسعت إلى مناطق شاسعة من المغرب إبان المراحل الجليدية الرباعية ثم تراجعت في العصور الغابوية، واستقرت إبان شبه الأطلسي في المناطق المعروفة حاليا.

4 – تاريخ بعض المجالات المغربية

للمزيد من التوضيح حول التعاقبات المناخية والنباتية التي عرفتها المجالات المغربية بعد الحقبات الجليدية ارتأينا أن نلخص نتائج الأبحاث البالينولوجية التي أنجزت في بعض المحثات والبحيرات المغربية.

4 - 1 منطقة الريف (REILLE, 1977)

أنجزت عدة تنقيبات بالينولوجيتل في الريف أهمها تلك التي شملت محثة ضاية أبرطيط الموجودة بالقرب من شفشاون (رسم بياني رقم 1) :

– الفترة الأولى (240–230 سم) الموافقة لنهاية العصر البوري : وتظهر وجود غابة من الأرز غنية بأنواع القستوس (Cistes : *Cistus*)، وقليلا من البلوط النفضي. تدل هذه

المعطيات على أن بيومناخ المحطة كان رطبا وأكثر برودة من الحاضر، وأكثر قارية، وقليل الضباب.

– **الفترة الثانية (220–140 سم) الموافقة للعصر الأطلسي** : تم خلالها الانتشار الأمثل لغابات البلوط النفضية (البلوط الزيني والزغبي). مازالت غابات الأرز موجودة بكثافة لكن دون أنواع القستوس.

يستنتج من هذا أنه حدث تلطيف للمناخ أكده اتساع الغابات النفضية والظهور المتواصل للصفصاف بسبب ازدياد الرطوبة ما يلفت النظر أيضا هو ظهور الصنوبر البحري الذي قد يدل على وقوع حريق دمر قسطا كبيرا من غابة الأرز.

– **الفترة الثالثة (130–70 سم) الموافقة للعصر شبه البوري** : يلاحظ ظهور متواصل للبلوط الأخضر، وتكاثر منتظم للأرز مصحوبا بأنواع القستوس، في حين تراجع ملحوظ لنوعي البلوط النفضي، وظهور متواصل للبلوط الفليني في أواخر العصر، تدل هذه التغيرات على أن المناخ أصبح أكثر برودة مما كان عليه في الفترة السابقة.

ظهور أنواع نباتية أخرى مثل الزروع (Céréales) والحميضة (Rumex) والجوز والسرمقيات (*Chenopodiaceae*) يدل على بداية أنشطة الإنسان الزراعية على حساب الغابات التي بدأت تعرف اجتثاثا متزايدا.

– **الفترة الرابعة (70–0 سم) الموافقة للعصر الحاضر شبه الأطلسي** : يلاحظ تراجع كبير لغابات الأرز والبلوط النفضي، وظهور أنواع كثيرة من النباتات المصاحبة للإنسان ومزروعاته وحيواناته المدجنة، في حين يتكاثر البلوط الأخضر والفليني لتصبح غاباتهما هي السائدة.

يلاحظ كذلك بداية غراسة الزيتون بعد اجتثاث الغابة وخير دليل هو تراجع الخلنج الشجري (Bruyère arborescente : *Erica arborea*) الموازي عكسيا لتزايد الزيتون (دخول العرب إلى المنطقة).

وعلامات أكبر عمليات الاجتثاث تقع في أواخر شبه البوري والنصف الأول من شبه الأطلسي إذ دامت ما بين ألف أو ألفين سنة، بدأها الفينيقيون ووسعها الرومان والعرب والأمازيغيون. وعرفت أوجها في القرن السابع عشر ميلادي.

4 - 2 منطقة المعمورة (Reille, 1979)

أنجز البحث في مرجة سيدي بوغابة بمهدية (رسم بياني رقم 2) :

– **الفترة الأولى (570–400 سم) الموافقة للعصر الأطلسي** : تلاحظ نسبة ضعيفة للمجال الغابوي الذي لا يتعدى 15٪ والمتكون من البلوط الفليني والبلوط الأخضر. كما يلاحظ وجود نباتات عشبية كثيرة، وخاصة منها تلك التي تدل على أنشطة الإنسان الزراعية والرعوية وخاصة في أواخر هذا العصر.

– **الفترة الثانية (400–130 سم) الموافقة للعصر شبه البوري** : تزايد نسبة المجال الغابوي حتى بلغ 35٪ المكون من البلوط الفليني والزيتون البري. يلاحظ أن النقل من بعيد للقاح البلوط النفضي قد انتهى في حين لم ينقطع لقاح الأرز والصنوبر. تكاثر لقاح الأنواع المصاحبة للزراعة.

– **الفترة الثالثة (130–0 سم) الموافقة للعصر شبه الأطلسي** : تتميز بحدوث تغييرات جذرية للمحطة بسبب الأنشطة الكثيفة للإنسان.

4 - 3 منطقة الأطلس الكبير

4 - 3 - 1 عيون وادي تاساوت، علو : 900 2 م. (Reille, 1979)
(رسم بياني رقم 3)

– **الفترة الأولى (500–320 سم)** : ظهور تشكيلات نباتية عشبية تتخلها أنواع شجيرية وشجرية مثل البلوط الأخضر والصنوبر الحلبي والعرعر الفواح.
تصادف هذه الفترة بداية الهولوسين.

– **الفترة الثانية (320–140 سم) : الموافقة للعصر الأطلسي وشبه البوري وبداية شبه الأطلسي** : تراجع هام جدا للأعشاب المميزة للفترة السابقة، وازدياد نسبة المجال الشجري الذي بلغ 45٪ وأهم الأشجار هي البلوط الأخضر والصنوبر الحلبي اللذان يسودان في البيان.

– **الفترة الثالثة (130–0 سم) : الموافقة لنهاية العصر شبه الأطلسي** : تراجع لنسبة المجال الغابوي وانتشار للأنواع السهبية، أخرى تدل على ازدياد أنشطة الإنسان.

4 - 3 - 2 ضاية تيغسلانت، علو : 197 2 م (Bernard et Reille, 1987) الموجودة غرب تيزي تيشكا (رسم بياني رقم 4).

– **الفترة الأولى (80–62 سم) : الموافقة للعصر البوري** : تبين أن نسبة المجال الغابوي تبلغ 70٪ وأن هذا الأخير يسوده البلوط الأخضر والبلوط الزيني اللذان يتقاسمان المنطقة مع الصنوبر الحلبي المتواجد بكثافة. وجود شجرة البهشية (Houx : *Ilex aquifolium*) يدل على رطوبة المناخ وكثافة المجال الغابوي.

– **الفترة الثانية (62–41 سم) : الموافقة للعصر الأطلسي** : تواجد غابة أكثر كثافة من الفتر السابقة. تزايد رطوبة المناخ جعلت البلوط الزيني يبلغ أوجه في تشكيل غابات كثيفة مثل تلك التي تصادف حاليا بالريف، بينما يتراجع البلوط الأخضر والصنوبر الحلبي إلى مستوى لا يتجاوز نصف نسبة البلوط الزيني. يسجل كذلك تصاعد في ظهور البلوط الفليني.

تدل هذه المعطيات أن بيومناخ المحطة في العصر الأطلسي، كان من الصنف الرطب الذي ينعدم تماما في الوقت الحاضر بالمنطقة الوسطى للأطلس الكبير.

– **الفترة الثالثة (41–17 سم) : الموافقة للعصر شبه البوري ولبداية العصر شبه الأطلسي** : يلاحظ في قاعدة المستوى اندثار الصنوبر الحلبي والبلوط الفليني والزيتون البري، والظهور المكثف للبلوط الأخضر على حساب البلوط الزيني. تدل هذه العلامات على حدوث انخفاض في الحرارة والرطوبة معا. غير أن تكاثر الأعشاب الأليفة للماء يؤكد أن الإنسان أنشأ سدا لحقن المياه لاستعمالها للشرب له ولحيواناته. وتلك بداية للأنشطة الزراعية والرعوية للإنسان النيوليتي الذي ترك شواهد عديدة من نقوش على الأحجار (يوكور، أوكايمدن...).

علامة أخرى لأنشطة الإنسان تتجلى في تكاثر الصنوبر الحلبي على حساب البلوط الأخضر نظرا لعمليات الإجتثاث الواسعة التي دمرت غابات هذا الأخير. توافق هذه المرحلة أواخر الحضارة النيوليتية وأوائل العصر البرونزي.

– **الفترة الرابعة (17–0 سم) : الموافقة للعصر الحالي** : ظهور الأنواع النباتية بكيفية لا تغاير ما هو موجود حاليا : غياب البلوط الزيني وتراجع البلوط الأخضر، وتكاثر أنواع

القستوس، وظهور الزيتون والجوز والزروعات والأوكاليبتوس يدل على تزايد أنشطة الإنسان الزراعية والرعوية.

4 - 4 منطقتا الوالدية والقصابي (BALLOUCHE et DAMBLON, 1988)

4 - 4 - 1 مرجة الوالدية (رسم بياني رقم 5)

يؤكد البيان وجود واتساع التشكيلة الأوجية للزيتون البري منذ على الأقل 470 8 سنة قبل الحاضر، منتشرة في سهول الشاوية الغربية ودكالة وعبدة.

كما يلاحظ أن تشكيلات البلوط الفليني كانت تغطي إبان العصر الأطلسي مساحات شاسعة من هذه المنطقة والجهة الغربية من الأطلس الكبير.

4 - 4 - 2 منطقة القصابي بملوية الوسطى (رسم بياني رقم 6)

أهم ما يستنتج من البيان ما يلي :

– تأكيد وجود غابات الأرز على جبل العياشي منذ على الأقل 260 8 سنة قبل الحاضر أي في بداية الهولوسين.

– تأكيد وجود غابات البلوط الأخضر على السفوح الأطلسية منذ الهولوسين السفلي.

– خلافا لما كان يعتقد أن الجوز أدخل حديثا (شبه البوري) إلى المغرب من آسيا الصغرى، فإنه يلاحظ وجود هذه الشجرة بالمناطق الشرقية للأطلس الكبير منذ الهولوسين السفلي.

4 - 5 المناطق الصحراوية

يؤكد كيزيل وباربيرو (Quezel et Barbero, 1993) وباحثون آخرون أن الصحراء عرفت منذ الهولوسين تقلبات مناخية هامة. كانت مناطقها التي تبدو حاليا قاحلة جرداء، تعرف إبان العصر الأطلسي مناخا شبه جاف حسب تقسيم اومبيرجي (Emberger)، مكن الإنسان النيولتي من ممارسة الزراعة.

كان لتعاقب المراحل الرطبة نسبيا والمراحل الجافة أثر عميق على مكونات وبنيات التشكيلات النباتية الصحراوية. إضافة إلى هذه العوامل الطبيعية لحقت بالأنظمة البيئية الصحراوية تأثيرات نتجت عن تطور الأنشطة الزراعية والرعوية للمجموعات البشرية.

أهم الفترات المتعاقبة خلال 000 40 سنة الأخيرة هي كالتالي :

– حقبة رطبة نسبيا امتدت من 000 40 إلى 000 22 سنة قبل الحاضر،

– حقبة أكثر برودة وجفافا امتدت من 000 22 إلى 000 11 سنة قبل الحاضر،

– حقبة رطبة ولا سيما في المنطقة الجنوبية من الصحراء، ما بين 000 11 و 000 6 سنة قبل الحاضر،

– حقبة الجفاف الحالية التي كانت بدايتها 000 6 سنة قبل الحاضر، وامتدت مع تشديد القحولة إلى عصرنا الحاضر.

5 – تاريخ الحيوان :

كان الإنسان النيوليتي (Camps, 1974) يقنص عدة أنواع من الحيوانات التي كانت تعيش بالمجال المغربي. البعض منها انقرض بسبب الإنخفاض الحراري للمناخ، أو بالقنص المفرط.

ورد في وثائق القرطاجنيين والرومان مثل هانون (Hannon) وصقيلاكس (Scylax) وصطرابون (Strabon) وبلينوس (Pline l'ancien)، أن المجال المغربي كان يعج بالحيوانات الضخمة كالفيلة والزرافات والتماسيح التي لوحظت آنذاك بمنطقة المرجة الزرقاء، بالقرب من سوق أربعاء الغرب، وبالمعمورة، وبسهول مراكش وبعد ذلك التاريخ لم تذكر في أي وثيقة.

أنواع أخرى ذكر وجودها في الحقبة النيوليتية، مثل المها والحيرم، ولم تنقرض إلا في الخمسينات من هذا القرن العشرين وكانت تعيش بالمناطق الصحراوية للمغرب.

آخر فرد لأسد الأطلس قتل سنة 1936 بناحية تازة، ومازالت بعض أفراد الفهد ونمر الأطلس تعيش في المغرب.

انقرضت النعامة من المجال المغربي الصحراوي في أواخر السبعينات من هذا القرن.

ومازالت أنواع حيوانية أخرى تعيش في المجال المغربي الغابوي، ومنها القرد والرّتّ...، أو في الغابات شبه السهبية أو التجمعات السهبية مثل الغزال والحبار.

تلك هي أهم الحيوانات التي طبعت المجال المغربي طوال تاريخه الهولوسيني.

المراجع

BIBLIOGRAPHIE

- BALLOUCHE, A. et F. DAMBLON, 1988 : Nouvelles données palynologiques sur la végétation holocène du Maroc. *Actes X. Symposium APLF.* Bordeaux 28 sept. 22 Oct. 1987. Trav. Sec. Sci. Tech. t. XXV pp. 83-90.

- BEAULIEU, J.L., A. PONS, M. REILLE et H. TRIAT, 1979 : L'histoire de la forêt et de l'action de l'homme sur la nature en région méditerranéenne. *Calanques et montagne*, n. 220, 4^e trimestre.

- BENABID A. et M. FENNANE, 1994 : Connaissances sur la végétation du Maroc : Phytogéographie, phytosociologie et séries de végétation, *Lazaroa 14 : 21-97.*

- BENTIBA B. et M. REILLE, 1982 : Recherches pollenanalytiques dans les montagnes de Kroumirie [Tunisie septentrionale] : premiers résultats, *Ecol. Mediterranea 8[4) : 75-86.*

- BERNARD J. et M. REILLE, 1987 : Nouvelles analyses polliniques dans l'Atlas de Marrakech [Maroc], *Pollen spores*, 29 [2-3] : 225-240.

- CAMPS G., Les civilisations préhistorique de l'Afrique du Nord et du Sahara, Doin Edit, Paris 366 p.

- HOOGHIEMSTRA H. ; H. STRALLING ; C.O.C. AGWU and M. DUPONT : Vegetational and climatic changes at the northern fringe of the Sahara 250 000 - 5 000 years B.P. : evidence from 4 marine pollen records located between Portugal and the Canary Islands, *Review of Palaeobotany and Palynology*, 74 : 1-53.

- LAMB H.F. ; U. EICHER and V.R. SWITSUR, 1989 : an 18000 hear record of vegetation lake-level and climatic change from Tigalmamine Middle Atlas, Morocco, *Journal of Biogeography Cambridge*, 16 : 65-74

- PONS A., 1970 : Le pollen, *Collection "Que sais-je"*, n. 783.

- QUEZEL P., 1989 : Mise en place des structures de végétation circum-méditerranéenne actuelles, *Proceedings of MAB symposium XVI International, Grasslands Congress, Nice-France.*

- QUEZEL P. et M. BARBERO, 1993 : Variations climatiques au Sahara et en Afrique sèche depuis le Pliocène : enseignements de la flore et de la végétation actuelles, *Bull. Ecol.*, t. 24 [2-3-4] : 191-202.

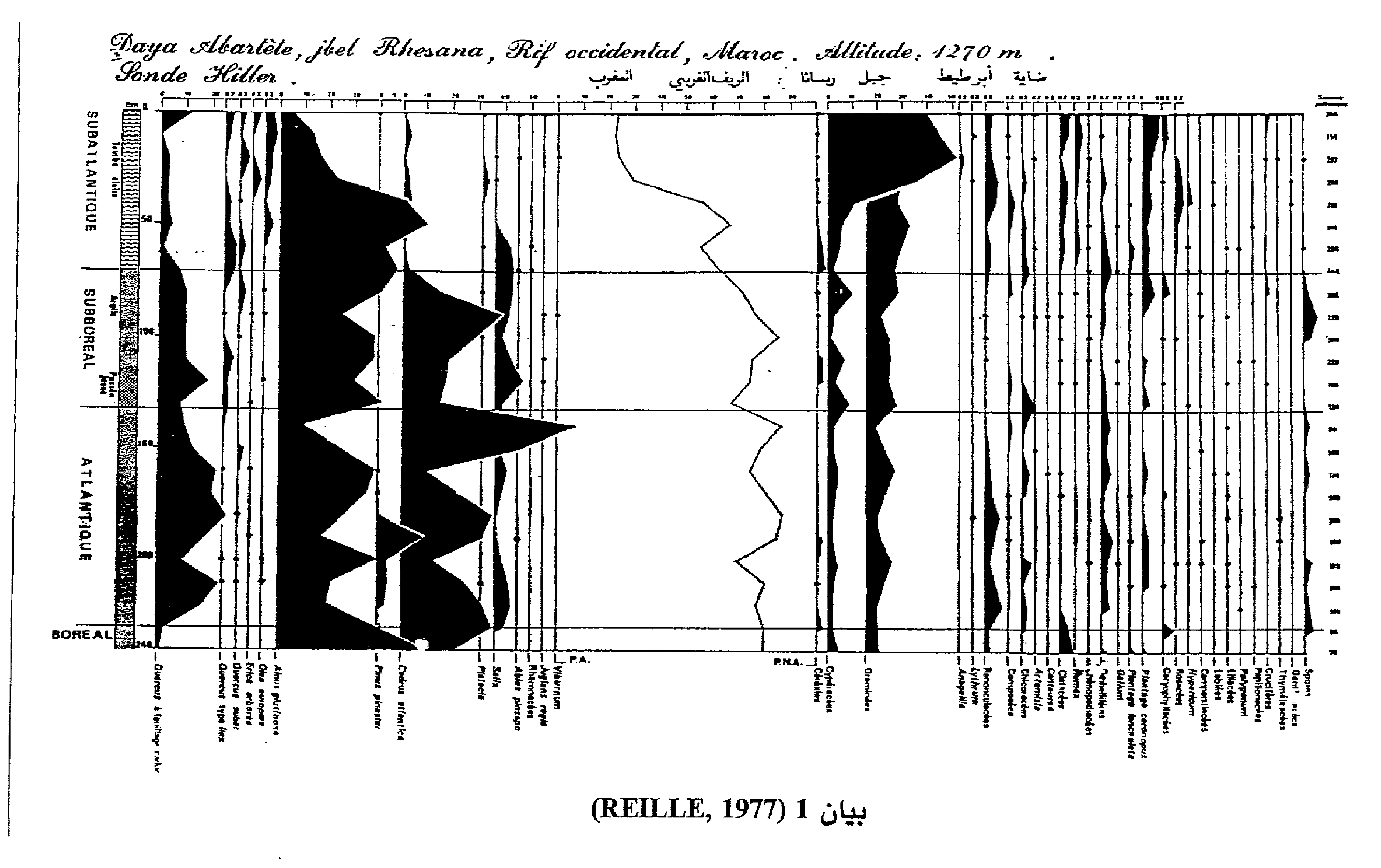
- REILLE M., 1976 : Analyse pollinique de sédiments postglaciaires dans le Moyen-Atlas et le Haut-Atlas marocains : premiers résultats, *Ecol. Mediterranea*, 2 : 153-170.

- REILLE M., 1977 : contribution pollenanalytique à l'histoire holocène de la végétation des montagnes du Rif, *Suppl. Bull. Ass. Fr. Et. Quaternaire*, Paris, 50, 53-76.

- REILLE M., 1979 : Analyse pollinique du lac de Sidi Bou Rhaba, littoral atlantique [Maroc] *Ecol. Mediterranea*, Marseille, 4 : 61-65.

عصور المجال المغربي بعد الفترة الجليدية الأخيرة

شبه الأطلسي	800 ق.م.	SUBATLANTIQUE
شبه البوري	2500 ق.م.	SUBBOREAL
الأطلسي	5500 ق.م.	ATLANTIQUE
البوري	6700 ق.م.	BOREAL
قبل البوري	8300 ق.م.	PREBOREAL
الدرياس الحديث	8800 ق.م.	DRYAS RECENT
آلرود	9900 ق.م.	ALLEROD
الدرياس القديم	12000 ق.م.	DRYAS ANCIEN
الفورم		WURM


(REILLE, 1977) بيان 1

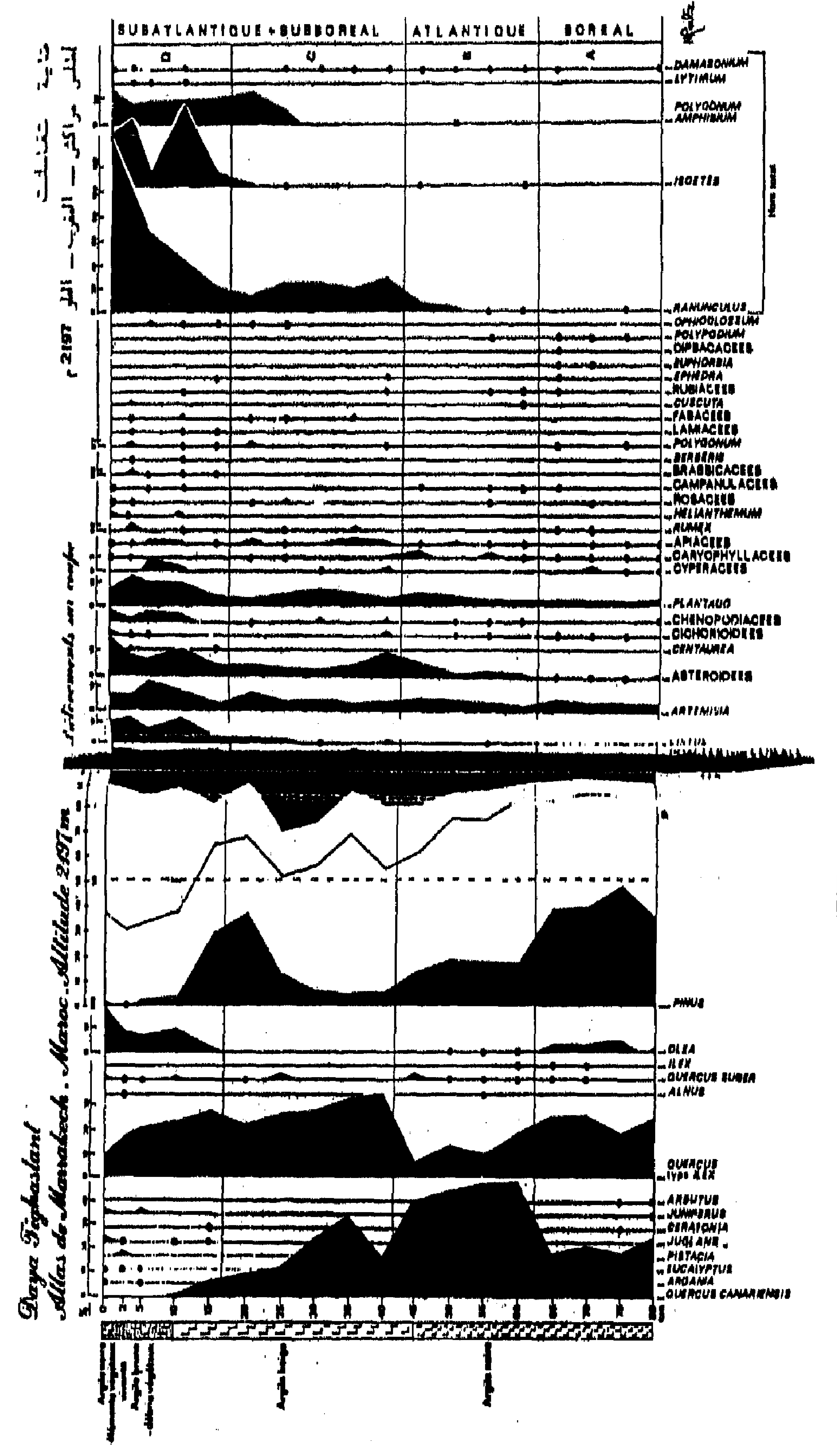
Merja Sidi Bou Rhaba . Mehdia, Maroc . Altitude: 25 m . Sonde Hiller

مستنقع سيدي بوغابة مهدية الغرب

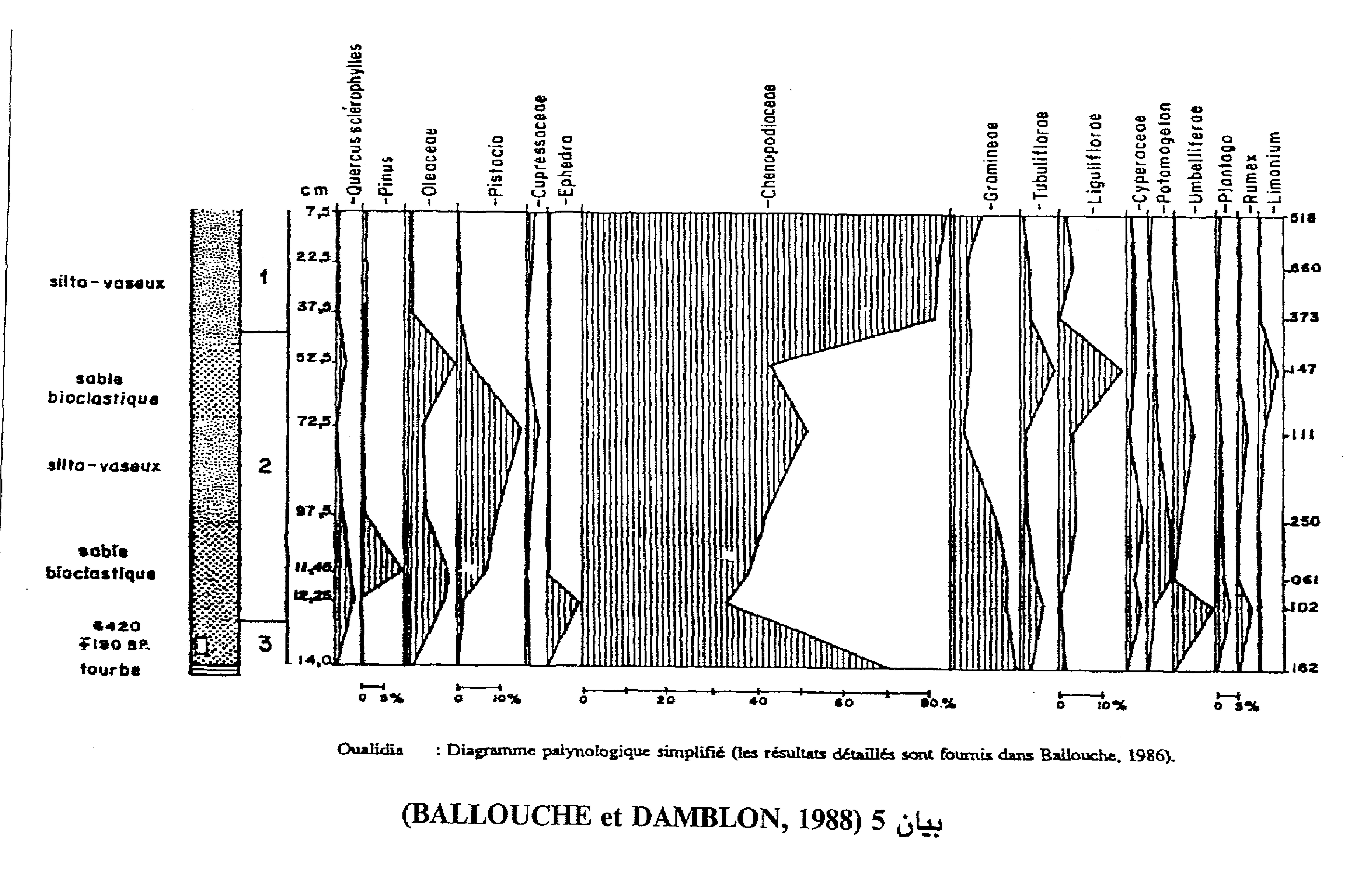

بيان 2 (REILLE, 1979)



بيان 3 (REILLE, 1976)

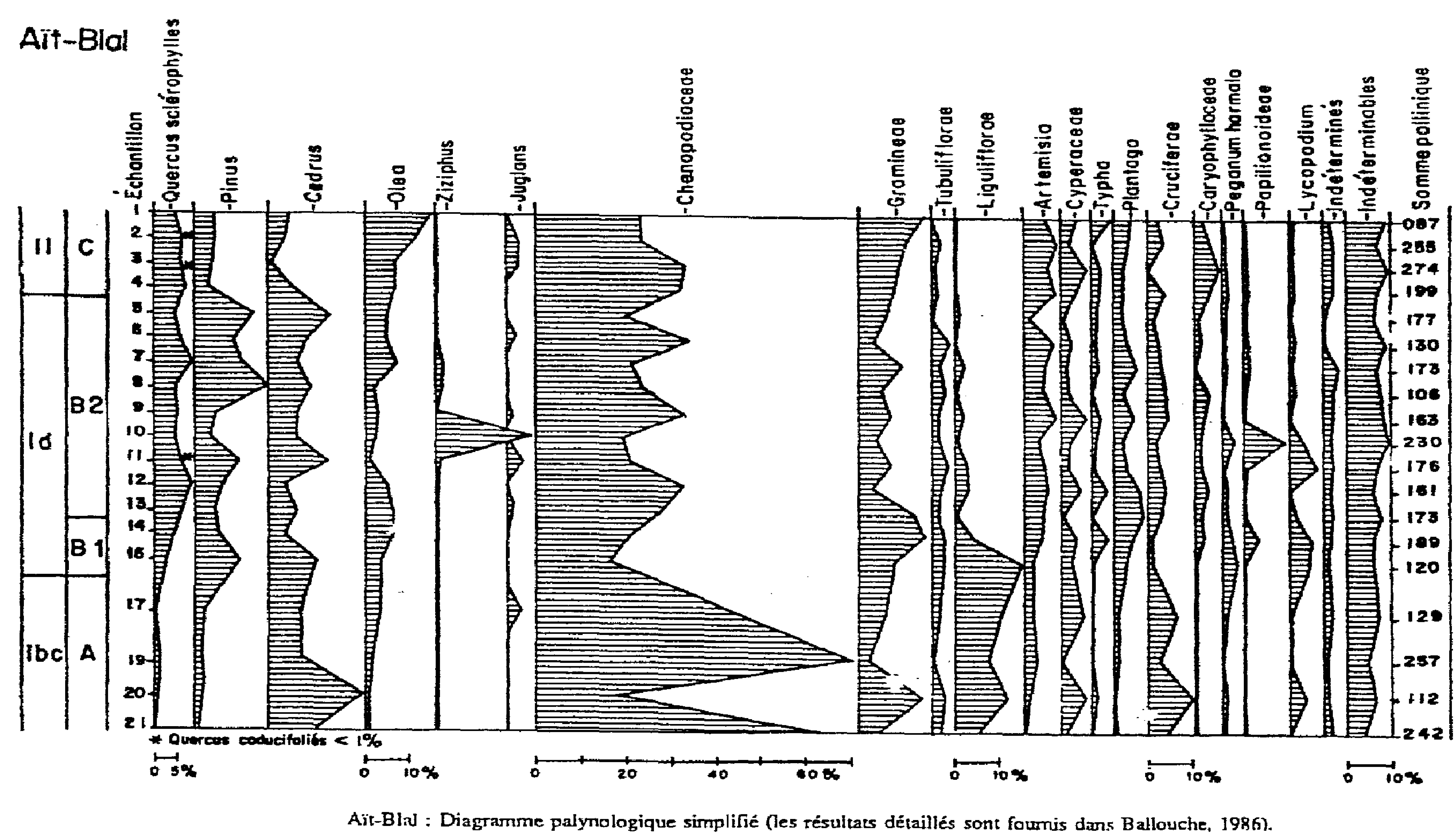


(BERNARD et REILLE, 1987) 4 بيان



Oualidia : Diagramme palynologique simplifié (les résultats détaillés sont fournis dans Ballouche, 1986).

(BALLOUCHE et DAMBLON, 1988) 5 بيان



Aït-Blal : Diagramme palynologique simplifié (les résultats détaillés sont fournis dans Ballouche, 1986).

(BALLOUCHE et DAMBLON, 1988) 6 بيان


FIG. 6. Tigalmamine: summary relative pollen frequency diagram. The pollen sum is all terrestrial pollen, excluding Cyperaceae and aquatics. Note that Zone T1 occupies half the total time represented, in only 4 m of sediment.

التغيرات البيئية خلال الهلوسين والفترة التاريخية بهضبة المعمورة وساحلها

نافع رشيدة* - طفة عبد الرحيم**

تشترك الدراسات الجيومرفلوجية مع التاريخ في إعادة البناء الكرونولوجي لمظاهر السطح، وفي مسالة المرحلية وحكاية تاريخ الأشكال والتكونات حيث يصبح عامل الزمن هو الأساس.

وبما أن الانسان أصبح جزءا من العوامل المؤثرة في تغيير الاشكال ودينامية الوسط الطبيعي بفعل العلاقة الوطيدة بين التوازنات البيئية والاستغلال البشري، من هنا كان الاهتمام بحركات الانسان واستقراره وبتدخلاته.

ويشير عدد من الباحثين على أن المغرب عرف تغيرات طبيعية بعد الفترة الجليدية الأخيرة زاد من حدتها ظهورحضارات بشرية حولت الانسان من أنشطته السابقة المعتمدة

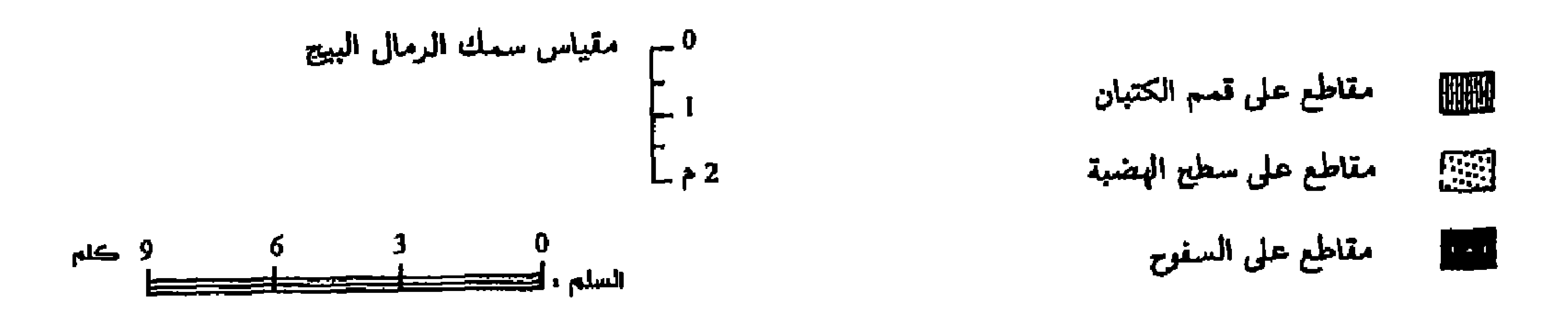
* كلية الآداب المحمدية - جامعة الحسن الثاني.
** مختبر الجيومرفلوجيا - كلية الآداب الرباط - جامعة محمد الخامس.

370 380 390 400 410

410
400
390
380
370

القنيطرة
سيدي يحيى الغرب
شاطئ الأمم
بوقنادل
بوطويل
سلا
الرباط
سيدي علال البحراوي
تيفلت

خريطة رقم 1
خريطة امتداد الرمال البيج



على القطف والصيد في إطار تكامل بيئي بينه وبين الطبيعة إلى الفلاحة التي أصبحت اهم نشاط للانسان.

Alpern et al 1972, Reille 1976, 1979, Lamb et al 1989, Wengler et al 1992,)
(Leroyer et al 1992 Leroi-Gourhan 1992 Pons et al, Benabid et al, 1994.

مما يعني أن التربة صارت بالإضافة الى الماء والغابة رأسمال مهم يتأثر كثيرا بالاستغلال المباشر كالزراعة او غير المباشر كإزالة الغابة، لذلك تظل التربة هي أحد المؤشرات الأساسية على حركية الإنسان ونشاطاته من جهة، كما أنها شاهدة على التوازنات البيئية للمجال الذي يعيش فيه من جهة ثانية.

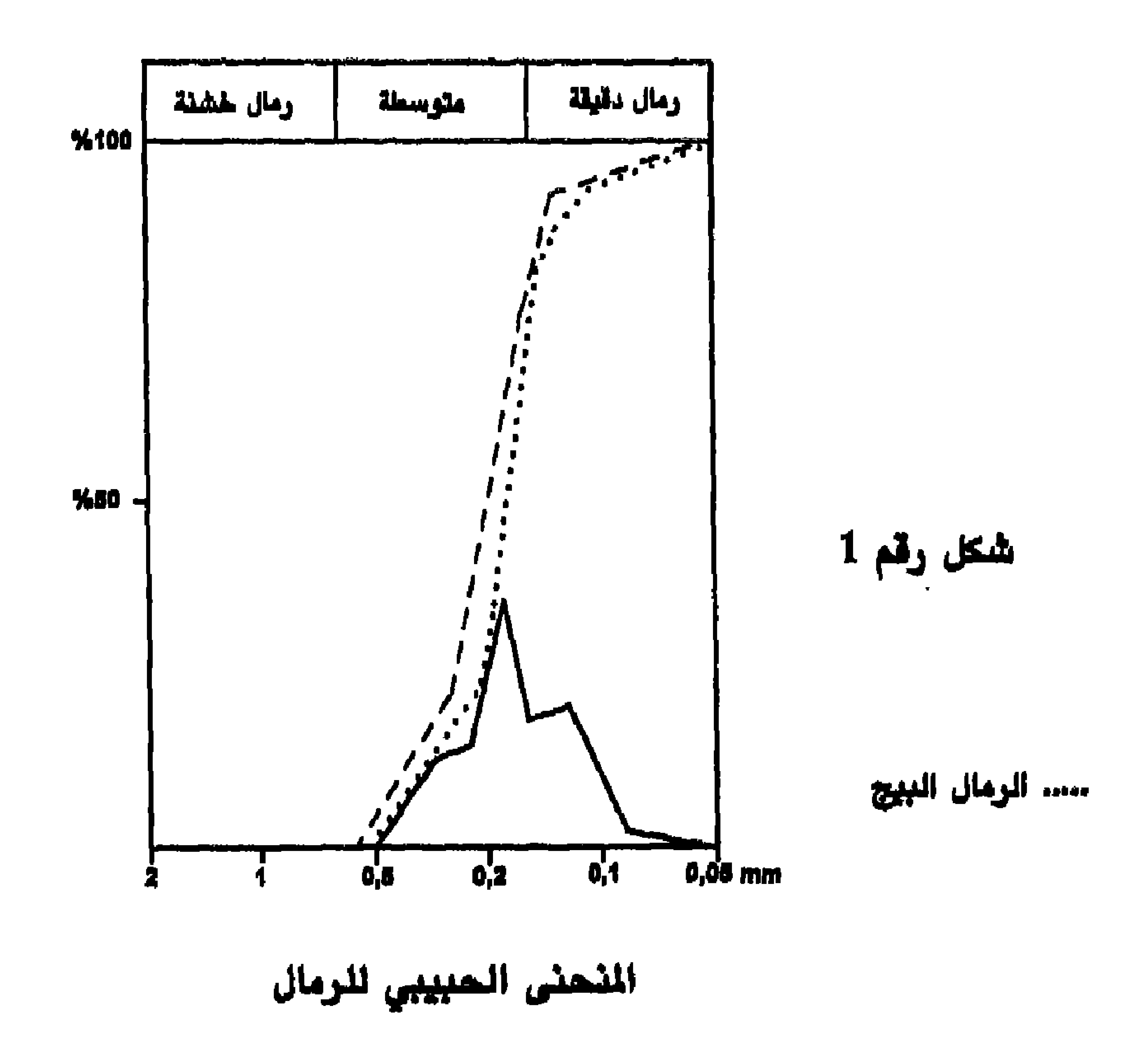
ومن هذا المنطلق تأتي الدراسات الجيومرفلوجية للأشكال والتكونات التي تنتمي للهلوسين (العصر الحجري الحديث) معتمدة على مبدإ جيومرفلوجي أساسي مرتبط بقوانين التعرية : وهو أن التربة إذا كانت محلية فإنها قد تعبر عن ظروف استقرار بيئي ورطوبة مناخية توفر غطاءا نباتيا يحمي السفوح من الازالة ويسمح بتطور الفسخات والأتربة أما إذا كانت في غير محلها أي منقولة على شكل سفحيات فإنها قد تعبر عن ظروف عدم استقرار وخلل في التوازن البيئي، كانتقال نحو جفاف مناخي يؤدي الى انفتاح النبات الذي كان يثبت التربات لكن مع توفر رطوبة فصلية تسمح بحركية السيل على السفوح. في إطار عملنا هذا نقوم بمحاولة لضبط العلاقة بين التغيرات البيئية الطبيعية وبين التغيرات البيئية الناتجة عن التدخلات البشرية حيث ننطلق في رصد هذه التغيرات انطلاقا من نهاية السلطاني (الفترة العطيرية).

شهدت نهاية السلطاني تدهورا بيئيا هم هضبة المعمورة بكاملها :

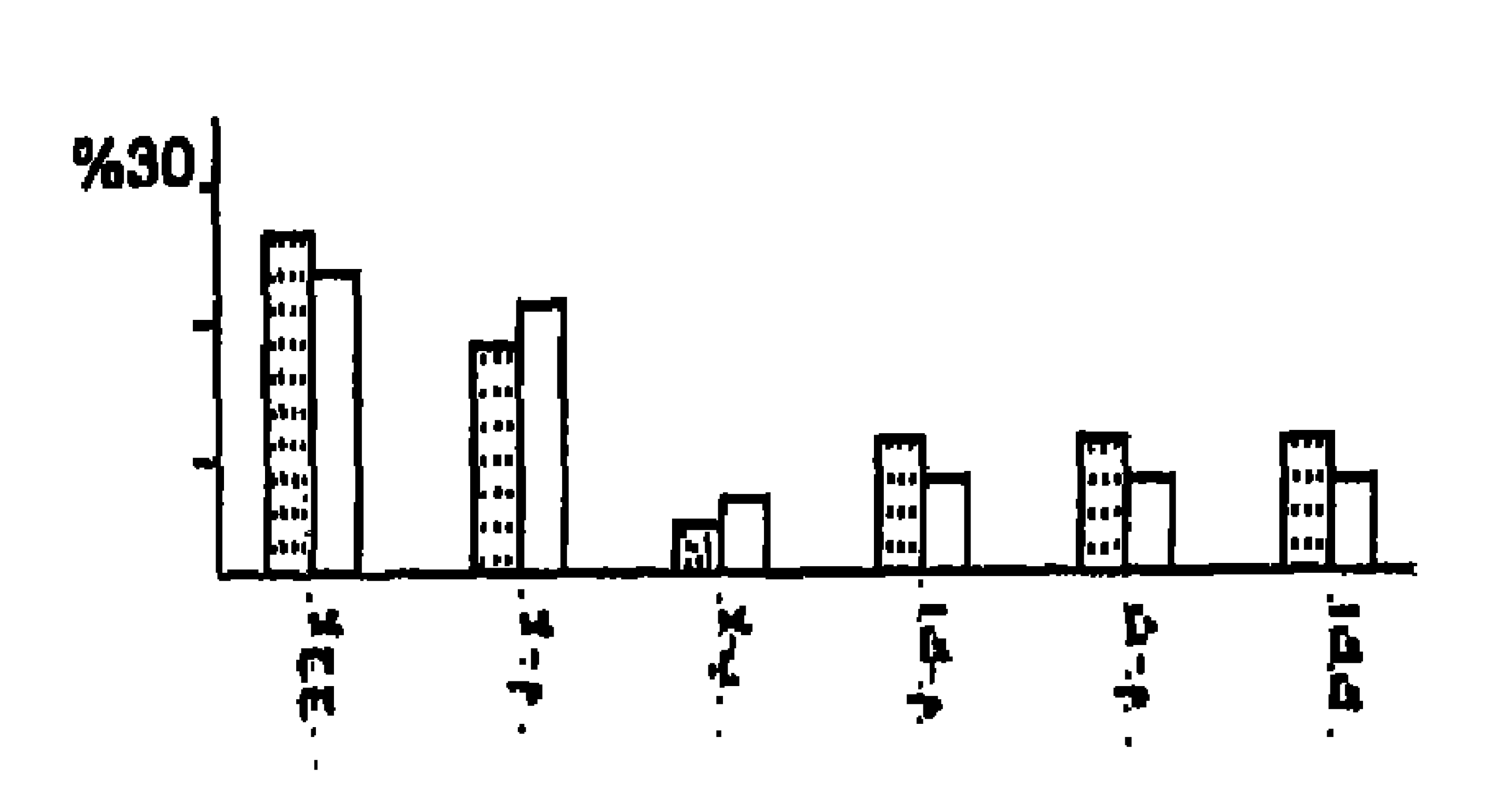
تغلف سطح الهضبة رمال شتيتة مصفرة اللون، متجانسة حبيبيا تمتد امتدادا واسعا وتغطي قمم التموجات وسفوح الاودية والمنخفضات و انتشارها يصل الى حدود منطقة الخميسات شرقا. (خريطة رقم 1).

أكدت التأريخات المطلقة بأنها توضع حديث يتراوح عمره بين 22 و26 ألف سنة مما يؤكد إنتماءها للسلطاني الأعلى (نهاية الفترة العطيرية).

لقد اعتبرت هذه الرمال المغلفة لسطح المعمورة مستوى ترابيا مغسولا فوق مستوى طيني استقبال (Faraj 1936, Lepoutre 1967, Ghanem 1981) لكن العلاقة المورفلوجية بين الرمال البيج العليا وما تحتها تتخذ شكل اتصال خطي (شكل رقم 1).

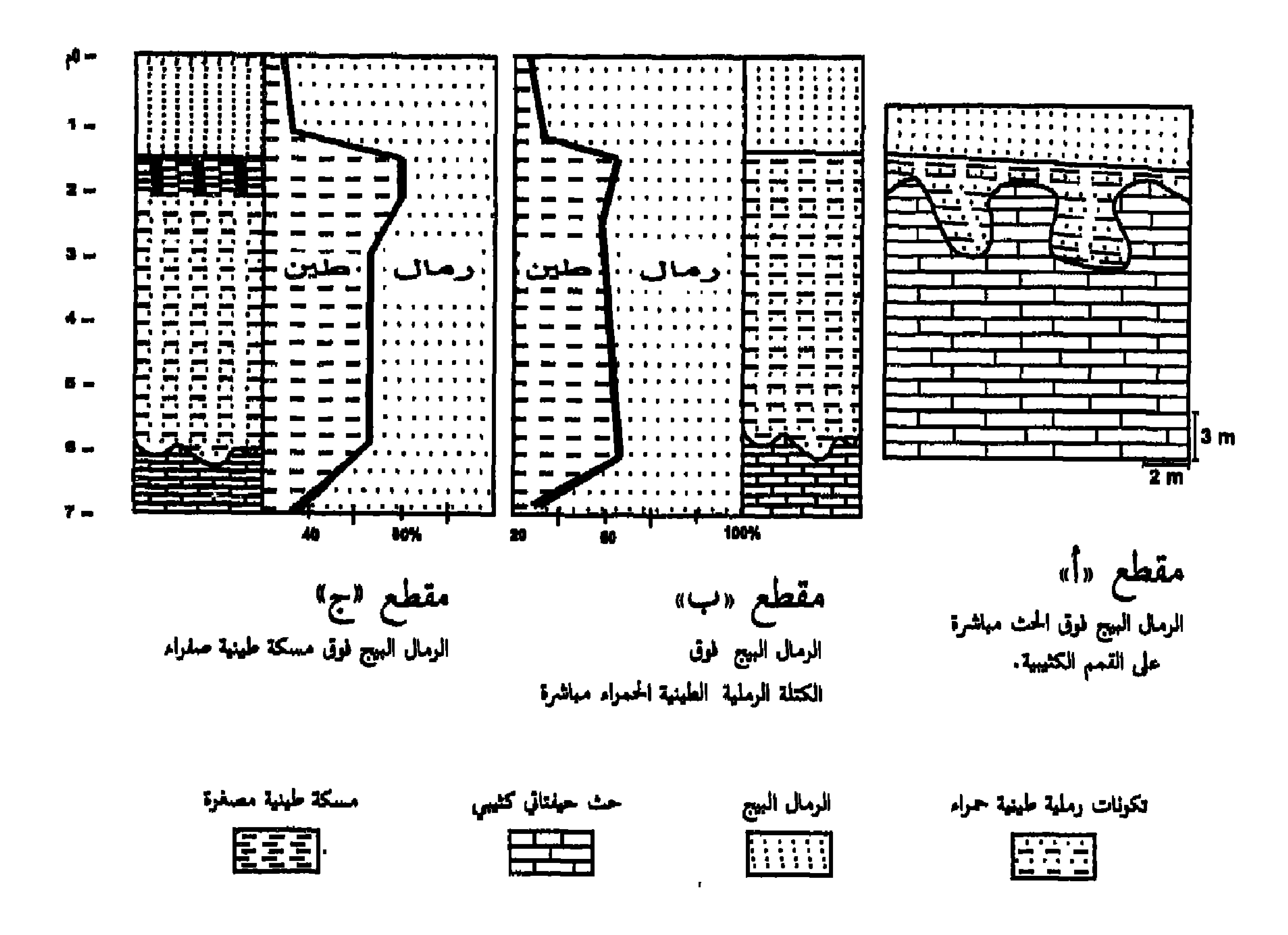


المنحنى الحبيبي للرمال



ج ح : جوانب حادة — لا : لامعة
م : مستديرة — ب : بيضاوية
كا : كامدة — ث : مثقبة
ك : كروية

الملاحظات المجهرية على حبات الكوارتز



قطاع تكونات الرمال البيج في مواضع طبوغرافية مختلفة

وتتجلى هذه الوضعية أكثر فوق قمم الكثبان مما يدل على أن الرمال السطحية بالمعمورة هي رمال منقولة نشرت حديثا لأنها تغطي سطح الهضبة وسفوح الأودية (Laouina et al 1992, Watfeh 1993, Watfeh et al 1992, Nafaa et al 1993).

الدراسة الحبيبية للرمال أظهرت أنها ذات فرز جيد عند الفئة المنحصرة بين 200 µ و125 µ وهي فئة يسهل نقلها من طرف الريح، وتؤكد الدراسة المجهرية للرمال السليسية ذلك أن 25٪ من الحبات هي كروية مثقبة (شكل رقم 1) تعبر عن نقل ريحي.

إعادة التحريك والنشر بالرياح قد يكون مؤشرا على جفاف مناخي أدى الى تدهور الوسط الطبيعي بما فيه من نباتات قديمة فاصبحت السيطرة للرياح التي حركت الرمال وأعادت نشرها خصوصا فوق قمم الكثبان، إنما لايمكن تصور أن هذا قد حدث تحت غطاء غابوي شبيه بالحالي بل لابد من حدوث انفتاح وتدهور للغطاء او تحوله إلى أنواع

سهبية على الاقل حتى يتم تحريك هذه الرمال، وبالتالي فان غابة البلوط الفليني الحالي الذي يمثل النبات الذروي بالمنطقة قد استوطن بعد عودة ظروف مناخية رطبة حدثت بعد 20 ألف سنة وليس أقدم من ذلك.

هذه الرمال عرفت تغيرات مختلفة تنوعت أسبابها منذ بداية الهلوسين إلى الآن، هذه التغيرات تعبر عن أزمات تنوعت أسبابها بين ما هو طبيعي وما هو مرتبط بالتدخل البشري وهناك بعض النماذج الميدانية التي يمكن الاعتماد عليها لضبط هذه الازمات :

متوالية شاطئ الأمم شاهد على تغيرات الوسط الطبيعي

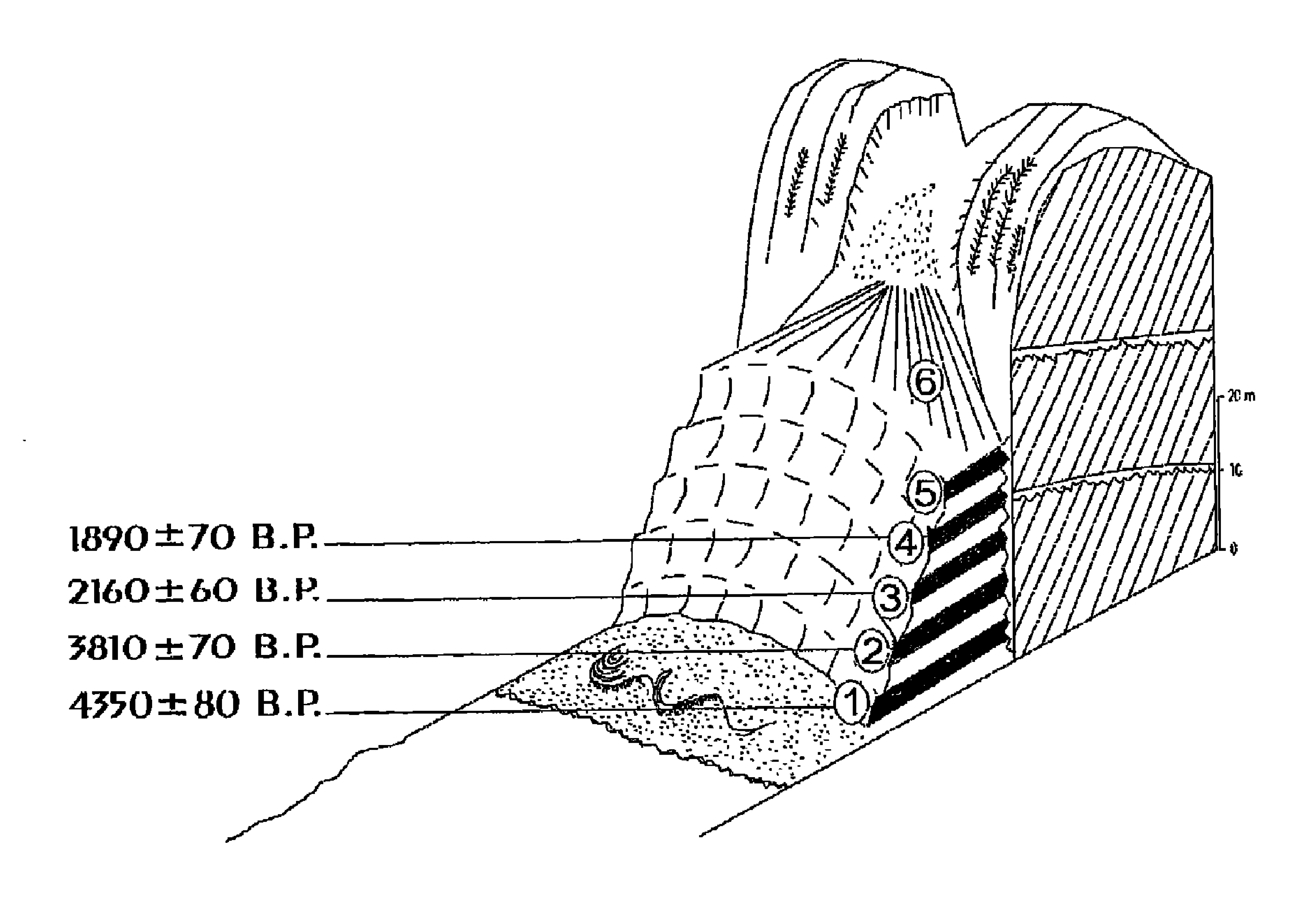
شمال شاطئ الأمم (ط : 376.7 ع : 394.5) تظهر أجراف قديمة علوها يتراوح بين 50 و 40 م تفصلها عن البحر توضعات تنحدر باتجاه البحر على شكل مخاريط انصباب، يتكون كل مخروط من متوالية إرسابية تشكل دليلا على ديناميات متعاقبة في ساحل المعمورة، فنجد على الأقل خمسة مستويات بنية محمرة أو رمادية مسودة تتعاقب مع مستويات من الرمال البيضاء (شكل رقم - ا - و صور ا ج 2).

دراسة نسيج المستويات الملونة بينت وجود اختلاط (جلاميد، حصى، رمال، دقة وطين مع بقايا فخارية وقواقع قارية وبقايا فحم خشبي وحجارة المواقد) يدل على أنها توضعات سفحية مرتبطة بحركية السيل على السفوح.

أما المستويات البيضاء فهي عبارة عن رمال حيفتاتية خشنة و كوارتزية متوسطة الى دقيقة غير متصلبة تدل على إرساب ريحي.

يتكون قطاع المتوالية من المستويات التالية من الاسفل الى الاعلى : (شكل رقم -ا-).

1. سفحيات تتكون من رمال طميية ذات لون بني سمكها بين 0.5 و1م.،
2. سفحيات ذات بنية كتلية رملية طينية، بين 0.5 و1 م.،
3. سفحيات رمادية الى مسودة تحتوي على بقايا فخارية سمكها حوالي 1.5 م.،
4. سفحيات رمادية غنية بالقواقع القارية وفحم الخشب تمثل نسبة الطين 25٪ والدقة حوالي 20٪ و45٪ من الرمال سمكها بين 40 و70 سم.،
5. سفحيات سطحية، حوالي 50 سم.



شكل – ا – : متاولية شاطئ الأمم

شمال شاطئ الأمم -(ط : 376.7، ع : 394.5)

هذه السفحيات تتعاقب مع رمال كثيبية حيفتاتية شتيتة سمكها يتراوح بين 2 م. و6 م.

إذن فهذه المتوالية تعبر عن تعاقب إرساب ريحي وتوضع سيلي، وإذا كان التشييد الريحي على الشواطئ مسألة عادية فإن وجود السفحيات قد يكون مؤشرا على حدوث خلل بيئي قد يترجم بانفتاح الغطاء النباتي حيث تصبح السفوح والتربات عرضة لعدوانية السيل الذي يجرف معه التربات السطحية نحو المناطق المنخفضة .

ومن أجل معرفة التواتر الزمني لفترات الخلل (الممثلة من قبل السفحيات) وعلاقتها بالتغيرات المناخية أو بتكثيف الاستعمالات البشرية، أجريت على القواقع القارية الموجودة ضمن السفحيات تأريخات نظيرية ب C 14 فأعطت النتائج التالية من الاسفل نحو الأعلى :

(الشكل)

- السفحيات رقم 1 عند 4350 ± 80 سنة ق. الآن،
- السفحيات رقم 2 عند 3810 ± 70 سنة،
- السفحيات رقم 3 عند 2160 ± 60 سنة،
- السفحيات رقم 4 عند 1890 ± 70 سنة.

فيما يخص السفحيات السفلى المؤرخة بين 350 4 و800 3 سنة ليست لنا لحد الآن الدلائل على ظروف تكونها، لكن الدراسة اللقاحية لـ : Reille 1979 أظهرت أن المستويات السفلى في ضاية سيدي بوغابة المؤرخة بين 600 5 و 500 2 سنة التي توافق الفترة «الأطلنتية» تعطي منحنى لقاحيا يشمل 15٪ فقط من النبات الغابوي (بلوط فليني وبلوط أخضر) مع غلبة لنباتات عشبية ترافق المزروعات التي أقامها الانسان في نهاية الفترة الاطلنتية.

أما المستويان العلويان 3 و4 المؤرخان بين 200 2 و900 1 سنة أي 300 سنة ق.م. و377 سنة بعد م. فقد أكدت المعطيات التاريخية والأثرية أنها توافق الفترة الرومانية بالمغرب التي عرفت انتشار الزراعة واستغلال الغابة لأغراض متعددة في مثلث طنجة وليلي وسلا (خريطة رقم 2).

Gsell 1921 ; Saint Quentin 1949 ; Balout 1954, Thouvenot 1954, Jodin 1968 ;)
Léon l'Africain التازي سعود 1976 والمصمودي 1977 والطويل 1988...).

وقد تم العثور على أدوات معصرة رومانية مصنوعة من الحجر الرملي (الحث) قرب سلا (Thouvenot 1954).

هل هو مؤشر على انتشار زراعة الزيتون خصوصا وأن المنطقة الساحلية كانت يوجد بها الزيتون البري ؟ وهل تم ذلك على حساب الغطاء الأصلي ؟ تصريح شفوي : (العوينة وبنعبيد).

فيما يخص الكتابات القديمة نفسها نجد مؤرخين مثل هيرودوت وسترابون يشيرون الى أن موريزيا أي المغرب الأقصى كان يزود روما بالأخشاب لأغراض مختلفة.

ومن المؤشرات أيضا على هذه التغيرات الحاصلة ما أتى في الرحلات القديمة، ففي القرن 4 ق.م يشير حانون في وصف رحلته الشهيرة (في Gsell 1921) كيف أن منطقة

سلا وضواحيها كانت تغص بالفيلة وحيوانات أخرى كفرس النهر وأنها كانت على شكل أهوار تغطيها النباتات الإلفمائية. بينما في القرن 4 م. يشير تمستيوس بأنه لم يبق هناك فيل واحد، ويعزي هذا لحملات الصيد الكبرى التي استهدفت الحيوانات. مامدى ضخامة هذه الحملات حتى تؤدي الى انقراض الحيوانات ؟ ألا يكون ذلك نتيجة لتغير بيئي لم يعد ملائما لعيشها ؟

تبين إذن أن المغرب خلال هذه الفترة عرف موجات بشرية ابتدأت بالفينيقيين والقرطاجيين والرومان حملوا معهم مزروعات جديدة وتقنيات جديدة بدافع استغلال كثيف للأراضي والحصول على أكبر قدر من المحاصيل.

هذه الاشارات التاريخية والأثرية تعززها النتائج اللقاحية في قطاع بضاية سيدي بو غابة (Reille 1979) التي أظهرت تراجعا مهما للغطاء النباتي الذروي (البلوط الفليني) الذي كان يغطي سفوح هذه الضاية الموجودة على مرمى الحجر من متوالية شاطئ الأمم ' ويربط المؤلف هذا التراجع باستغلال بشري مكثف وذلك لارتفاع نسبة لقاحات الحبوب الزراعية من فصيلة (Plantago Lanceolata وPlantago Coronopus) في وقت تراجع فيه التعبير اللقاحي الشجري مما يدل على تقدم الاجتثات على حسات الغابة الأصلية. (شكل رقم 2)

عملية الاجتثات تكون كفيلة بجعل السفوح عرضة للتعرية ونقل سيلي للتربة باتجاه المنخفضات.

وحتى تكون لنا نظرة اكثر شمولية نقدم نموذجا ثالثا في موقع بعيد نسبيا عن الساحل وسط المعمورة على سفوح واد الفوارات.

قطاع وادي الفوارات يحمل أثار تغيرات الوسط البيئي معاصرة للمستوى الأعلى في شاطئ الأمم :

يتميز هذا الوادي بأهمية خاصة لأنه يقع داخل المعمورة ثم لأنه من المناطق القليلة التي استقر بها الانسان واجتث غابتها وتعرف سفوحه حاليا تدهورا متزايدا للتربة.

يخترق وادي الفوارات –وهو أحد الروافد الجنوبية لوادي سبو– هضبة معمورة من الجنوب نحو الشمال في اتجاه عام موازي للساحل (ج غ/ش شا) وبعمق لايتجاوز 60 م.

يغلب على سفوحه التحدب، كما أن الشميسة (السفوح اليمنى) هي التي تحمل أثار التخديد وإزالة التربة لدرجة أن بعض الأراضي تم التخلي عنها. السفوح اليسرى (الظليلة) اكثر انتظاما كما أنها أقل تدهورا.

يتميز مجراه بالضيق و لايزيد في أقصى الحالات عن 500 م.، كما أنه لايحتوي على مستويات نهرية ماعدا الدرجة الهلوسينية التي تمتد على طوله كلما توفر الاتساع.

دراسة أحد المقاطع (مقطع مشرع الكتان) في المستوى الهلوسيني في قعر الوادي أظهرت المستويات التالية من الاسفل نحو الاعلى : (شكل 3)

- رمال مبيضة متجانسة خالية من مظاهر الحياة (Azoique) سمكها الظاهر 30 الى 40 سم.،
- رمال رمادية الى مسودة مع نسبة من الطين والطمي، غنية بالقواقع القارية وبقايا فحمية وعظام سمكها حوالي 50 سم.،
- رمال رمادية الى مصفرة تحمل أثار تطور ترابي في الأعلى سمكها حوالي 1 م.،
- التربة الحالية لونها رمادي إلى بني.

الملاحظة الأساسية هي وجود المستوى المسود ممتدا على طول الوادي، القسم الأسفل منه لايضم قواقع، كما أنه غنى بالطين ويحمل اثار تترب وحييات مجهرية تدل على حدوث تطور ترابي محلي.

أما الجزء الأعلى منه فهو غني بالقواقع القارية مثل (Rumina Decolata) وبقايا فحمية مما يشير الى إعادة تحريك.

التحليلات المخبرية أظهرت ارتفاع نسبة الطين والمادة العضوية وهذا يدل على على رطوبة مناخية وظروف استقرار.(الشكل رقم 4)

أما وجود الفحم الخشبي وبصفة مستمرة فيدل على استقرار بشري واستغلال للأشجار مدة ليست بالقصيرة (L. CHABAL 1991).

التأريخات النظيرية الاولية بواسطة C14 لهذا المستوى المسود أعطى 1890 ± 90 بالنسبة للفحم الخشبي و 1670 سنة بالنسبة للقواقع المرافقة.

مقارنة هذه التواريخ بما حصلنا عليه في قواقع السفحيات العليا بشاطئ الأمم وهو 1890 ± 70 يتأكد أن هذه الفترة عرفت استقرارا بشريا واستغلالا مكثفا وافقت الوجود

الروماني بالمنطقة خصوصا وأن ظروف الرطوبة (التي يدل عليها التطين والقواقع والتترب) شجعت السكان على الاستقرار على جوانب الوادي وعلى السفوح التي أصبحت ترباتها الرملية الهشة عارية وعرضة للإزالة، المستويات العليا ربما تدل على استمرار الخلل مما أحدث إزالة مهمة على المنحدرات فتراكمت المواد الرملية فوق المستوى الترابي الاسفل بسمك يتعدى 1 م. أحيانا.

هشاشة الوسط البيئي هاته استمرت في تظافرها مع التدخل البشري المتزايد ليستمر التدهور خلال العصور الوسطى حيث ظلت غابة المعمورة المزود الرئيسي بالأخشاب والثمار خلال السنوات العجاف بل إن الموحدين اعتمدوا على أخشاب المعمورة في بناء سفنهم (ابن أبي زرع في «الطويل 1978») وصولا إلى الوضعية التي أصبحت عليها حاليا حيث تقلصت الغابة من حوالي 150 ألف هكتار إلى 60 ألف هكتار (اليوسفي 1983).

لقد حاولنا من خلال هذا العرض البحث عن علاقة بين عدد من التغيرات التي حدثت على السطح من جهة والاستيطان البشري التي تفرد بأثاره وترك بصماته التي نحاول في بحثنا* استجلاءها متسلحين بقناعة علمية تعترف بأن العمل المشترك بين الجيومرفلوجيا والتاريخ وعلم الآثار والنبات سيؤدي الى نتائج أفضل وأكثر شمولية.

* البحث في إطار دكتوراة الدولة في الجغرافية تحت إشراف الاستاذ عبد الله العوينة.

المراجع

BIBLIOGRAPHIE

B. Alpern et Al, 1972
Les méthodes de la palynologie shatigraphique Mém. *BRGM* fr. n. 77.

A. Aymard, 1967
Etudes d'histoire ancienne, Coll. P.U.F.

J. L. Ballais et al, 1994
Données nouvelles sur la morphogenèse et les paléenvironnements tardiglaciaires et holocènes dans la vallée de l'Oued Chéria-Mezràa, *Mediterranée*, n. 3-4, pp. 59-71.

T. Balout, 1945
Les hommes préhistorique du Maghreb et du Sahara, *Libeyca*, Arch. préhist. t. II.

A. Benabid et Al, 1994
Connaissance sur la végétation du Maroc - Phytogéographie, phytosociologie et séries de végétation. *Lazaroa 14.* 21-97

G. Camps, 1974
Les civilisations préhistorique de l'Afrique du Nord et du Sahara, Doin Edit, Paris, 366 p.

Ch. Caruesco, J.-P. Texier, A. Ballouch, 1984
Formation et évolution Holocènes du système lagunaire d'Oualidia (Côte Atlantique Marocaine) 10ème R.A.S.T. Bordeaux, P. : 121.

J. Evin, J, Marechal, Ch. Pachiaudi, 1980
Conditions Involved In dating Terrestrial Shells, *Radio-carbon*, vol 22, n. 2, pp. 545, 555 France

S. Gsell, 1921
Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, Hachette, Paris.

C. Klein, 1985
La notion de cycle en géomorphologie
Rev. de géol.dyn. et de géo-phys
Vol. 26 fasc. 2, pp. 95 - 107 - Paris

R.P. Koehler, 1936
Etudes des stations côtières atlantiques de la zone Nord de Rabat à Tanger, *Anuario de Prehistoria Madrilenia*, t. IV-IV, pp. 91-105 ; bull. Ass. Géogr., France n. 462 - Paris.

H. F. Lamb et Als, 1989
An 18 000 hear record of vegetation Lake-Level and clematic change from Tigalmamine, Middle Atlas, *Morocco Journal of Biogeography Cambridge*, n. 16, pp. 65-74.

A. Laouina, A. Watfeh, 1992
Le littoral de Salé et de Mamora : Les héritages et la morphodynamique., Sympos. Amenag. littor. et évol. des côtes, avril 1992 Rabat ; publié avec le concours de l'UNESCO, pp. 53-64.

LEON l'Africain
Desciption de l'Afrique, Ed. A. Epaulard Pub. de l'Institut des Hautes Etudes, Maroc, n. LXI, 2ème vol., Adrien Maisonneuve.

C. Lerayer et Al, 1992
Complémentarité des études palynologiques et anthracologiques :
Les exemples pynenéens de la Balma et de Belesta (France).
Bull. soc. 139, p. 281-295
Bot - fran5.

H. Masmoudi, 1977
Le Maroc à l'âge préhistorique (en arabe), D.E.S. Fac. des lettres et des Sciences Humaines, Rabat.

R. Nafaa, A. Watfeh, 1991
La dynamique actuelle dans la basse vallée de Bou Regrag, Revue de la Fac. des Lettres Mohammedia (*BouHout* n. 4), Université Hassan II, pp. 99-119, (en arabe).

R. Nafaa, A. Watfeh, 1992
La côte de la Mamora - Morphologie et types d'érosion, Revue de la Fac. des Lettres - Mohammedia (*BouHout*) n. 5.

R. Paskoff et Als, 1983
Stratigraphie et genèse des éoliantes du WÜRM et de l'holocène sur le littoral de la Tunisie, *C.R.* Acad de Sciences, Paris, T. 296, série II, pp. 1263-1266.

A. Pons et Al
Les témoignages de structures actuelles de végéta-

tion méditerranéénes dans le passé antérieur à l'action de l'homme.

P. Quezel et M. Barbero, 1993
Variations Climatiques au Sahara et en Afrique sèche depuis le Pliocène : enseignements de la flore et de la végétation actuelles, *Bull. Ecol.*, T. 24(2-3-4), pp : 191-202.

M. REILLE, 1979
Analyse pollinique du lac de sidi Bou Rhaba, littoral atlantique (Maroc), *Ecologia Mediterranea* n. 4. pp : 61 -65

M. Reille, 1976
Analyse pollinique de sédiments postglaciaires dans le Moyen Atlas et le Haut Atlas Marocains, premiers résultats, *Ecologia Méditerranéa* n. 1976 - pp. 153

R. Roget, 1924
Le Maroc chez les auteurs anciens (texte traduits), Edit. les belles lettres - Paris

P. Rognon, 1979
Variation climatiques et géomorphologiques sur la bordure Nord du sahara, *Bull. Assoc. géogr.* Fran. Paris n. 462 - Paris

P. Rognon, 1983
Essai de définition et typologie des crises climatiques, *Bull. institut géol. BASS.* d'aquitaine, Bordeaux n. 34, pp : 151 - 164.

A. RUHLMANN, 1945
Le paléolithique Marocain, Publ. serv. des Antiq. du Maroc. Fasci. 7, Rabat-Maroc

L. St-quentin, 1949
3000 ans avec les berbères, Delagrave.

M. Tazi-Saoud, 1978
Le Maroc à l'époque de juba II (En Arabe), Doct. d'Etat. Fac. des lettres, Maroc.

R. Thouvenot, 1954
Eléments de Pressoir à huile trouvés à salé, Publ. serv. Ant. Maroc-Fasc. 10 Paris.

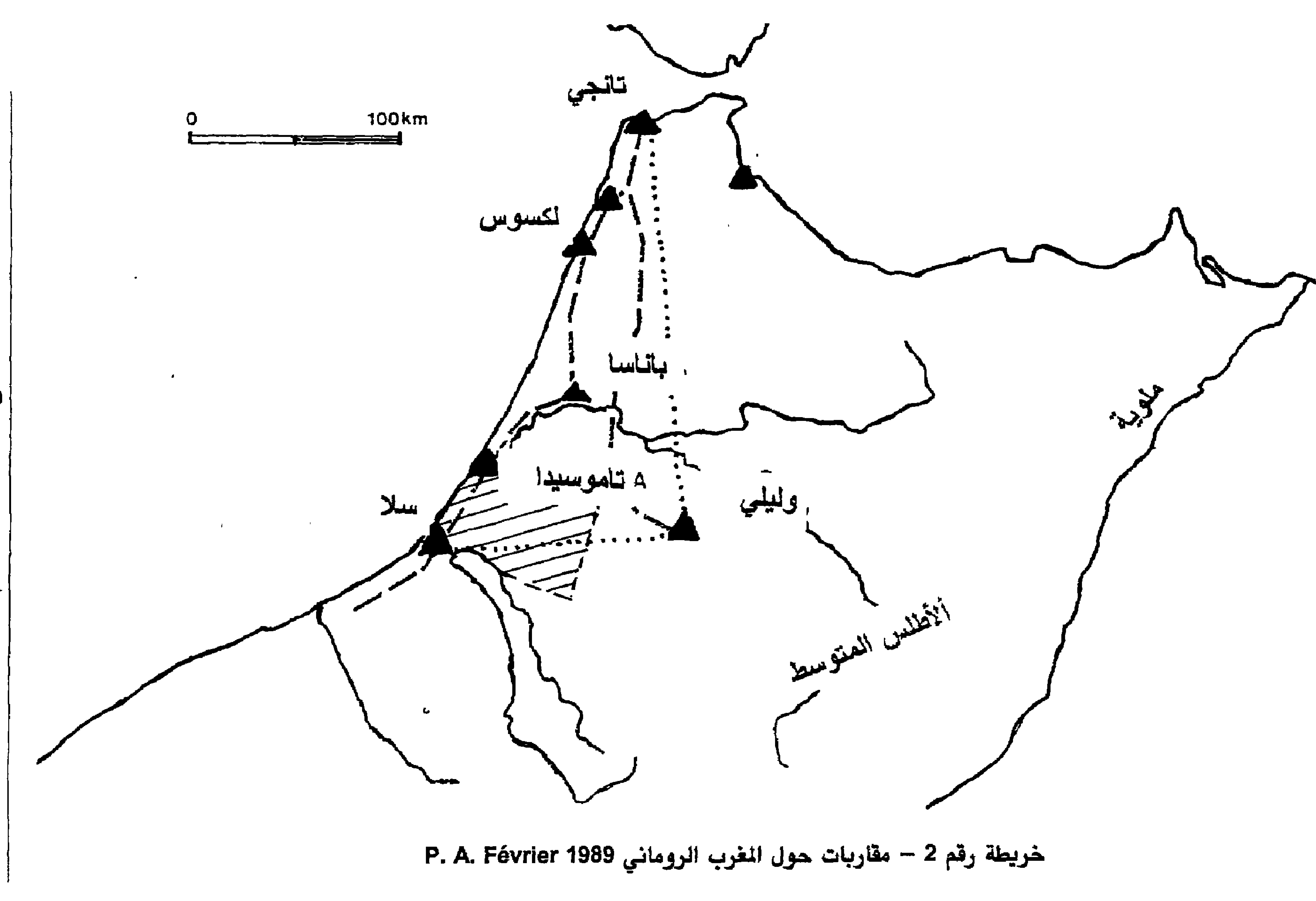
M. Touil, 1978
L'agriculture Marocaine au Moyen-âge (en Arabe), D.E.S. Fac. des lettres et des sciences humaines - Rabat.

J. Wainwright, 1992
L'espace, le temps et l'erosion en milieu Méditerraneén, Journées Res Eros Poitiers. France

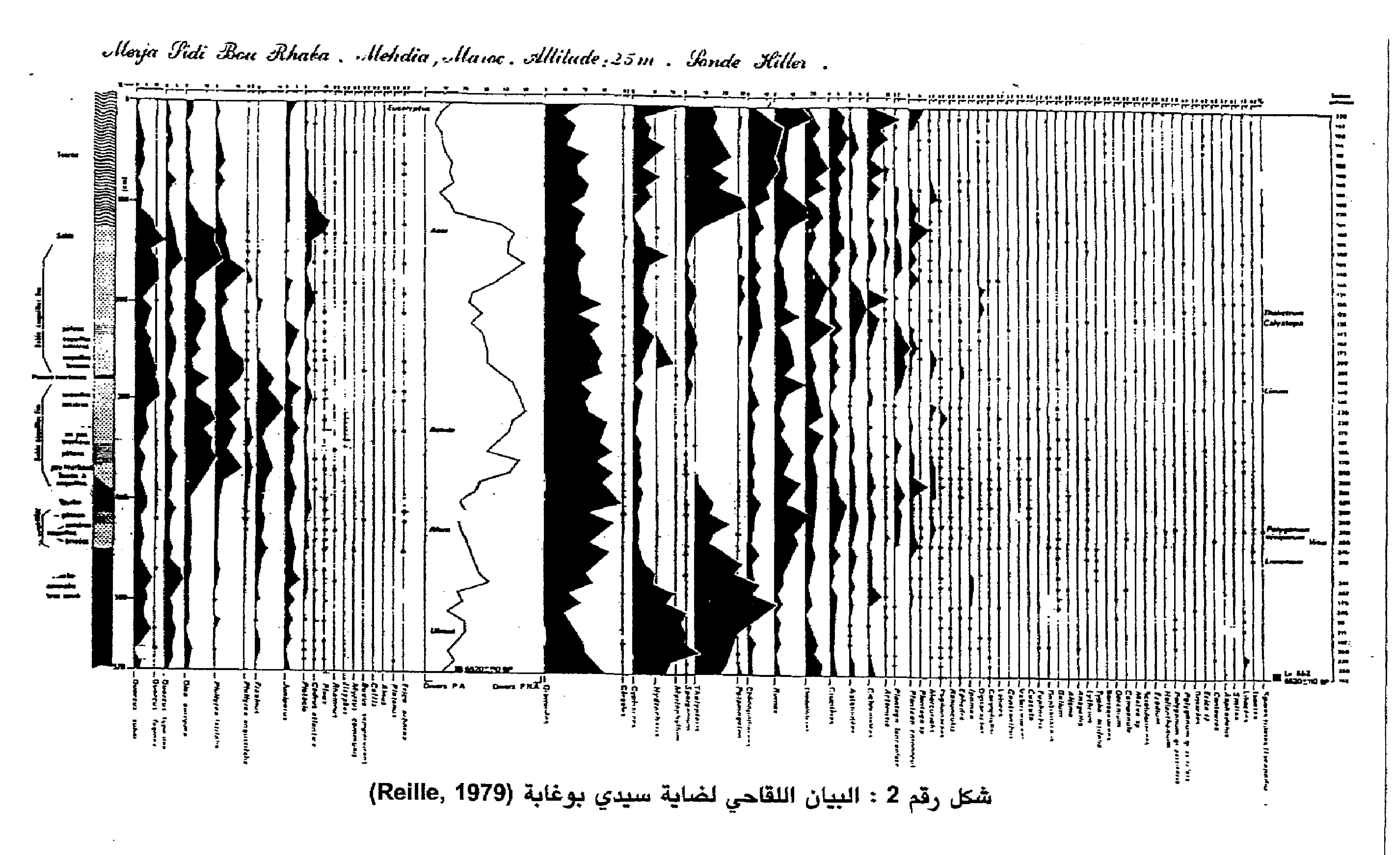
A. WATFEH, 1993
Plateau de la Mamora et le littoral de Salé, les formations superficielles et l'évolution géomorphologique, Thèse d'Etat, Fac. des lettres, Université Med V - Rabat, 370 pages. (en Arabe)

A. Watfeh, R. Nafaa et A. Hafdi, 1992
Les sables beiges de la Mamora en tant qu'élèment écologiquefragile (aparu dans "*BouHout*"), Fac. de Mohamedia.

L. Wengler et Als, 1992
Signification des palés milieux et évolution du climat au Maghreb, *Bull. Soc. Bot. fr.* 139 - (2/3/ 4) pp. 507 - 529

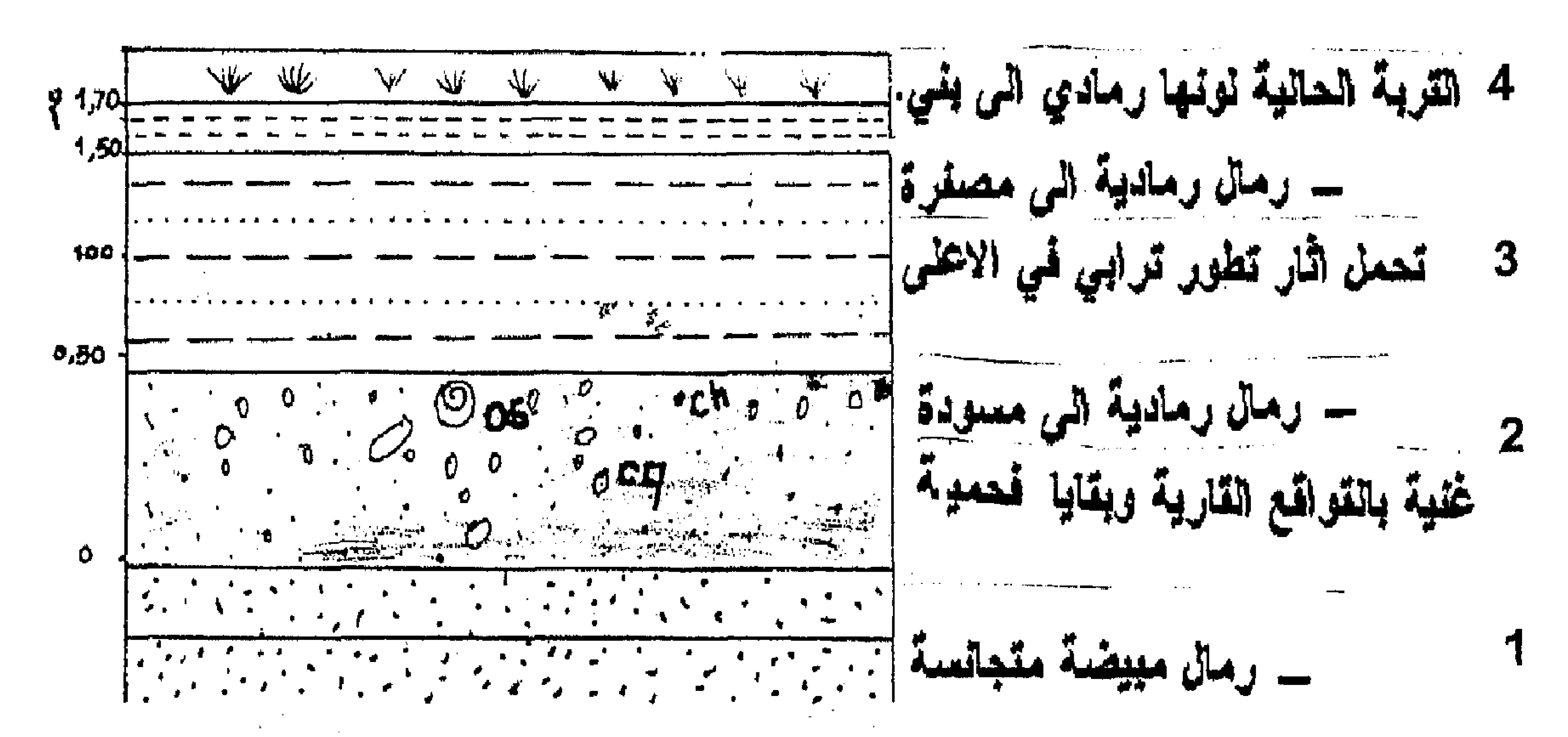


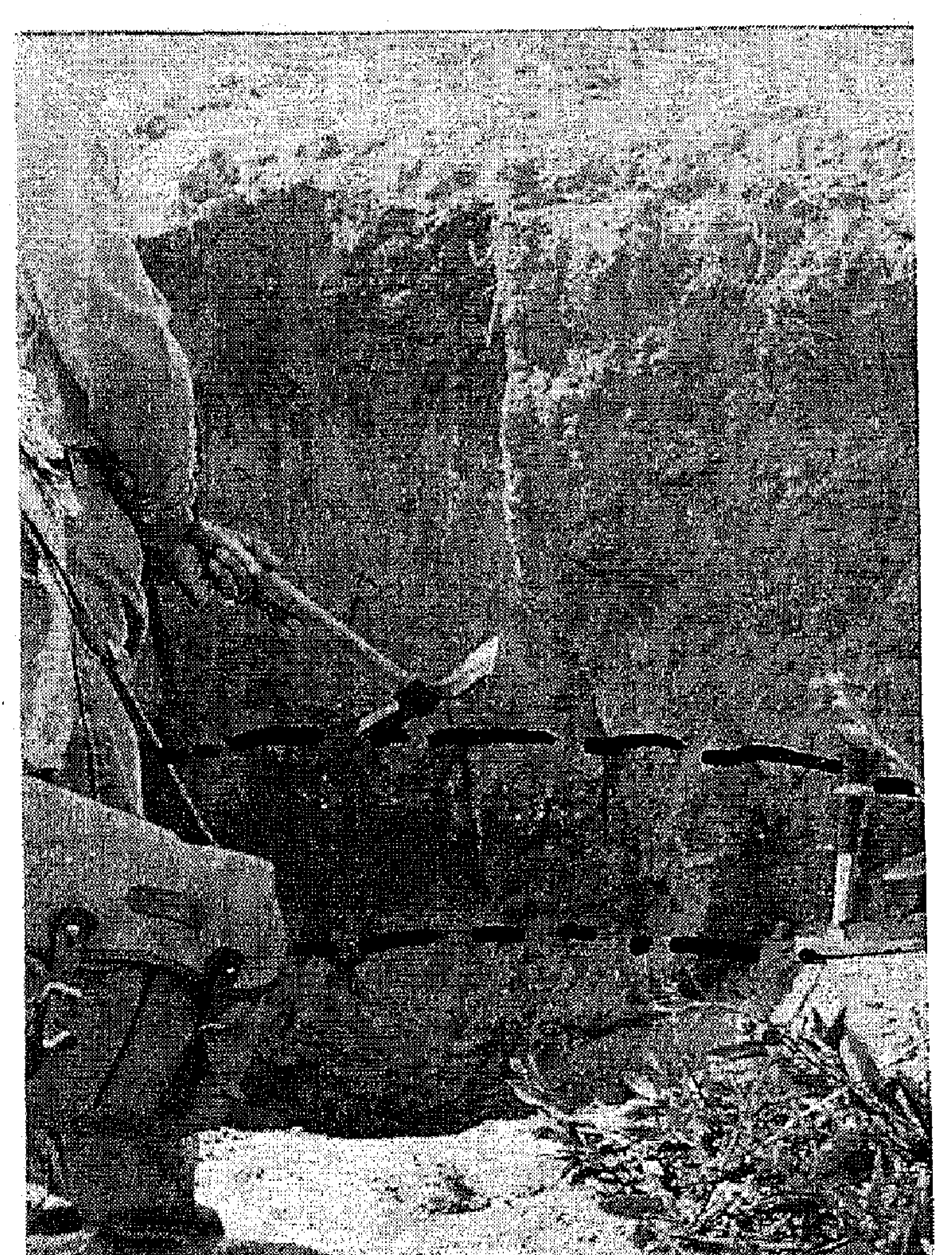
خريطة رقم 2 – مقاربات حول المغرب الروماني P. A. Février 1989



شكل رقم 2 : البيان اللقاحي لضاية سيدي بوغابة (Reille, 1979)

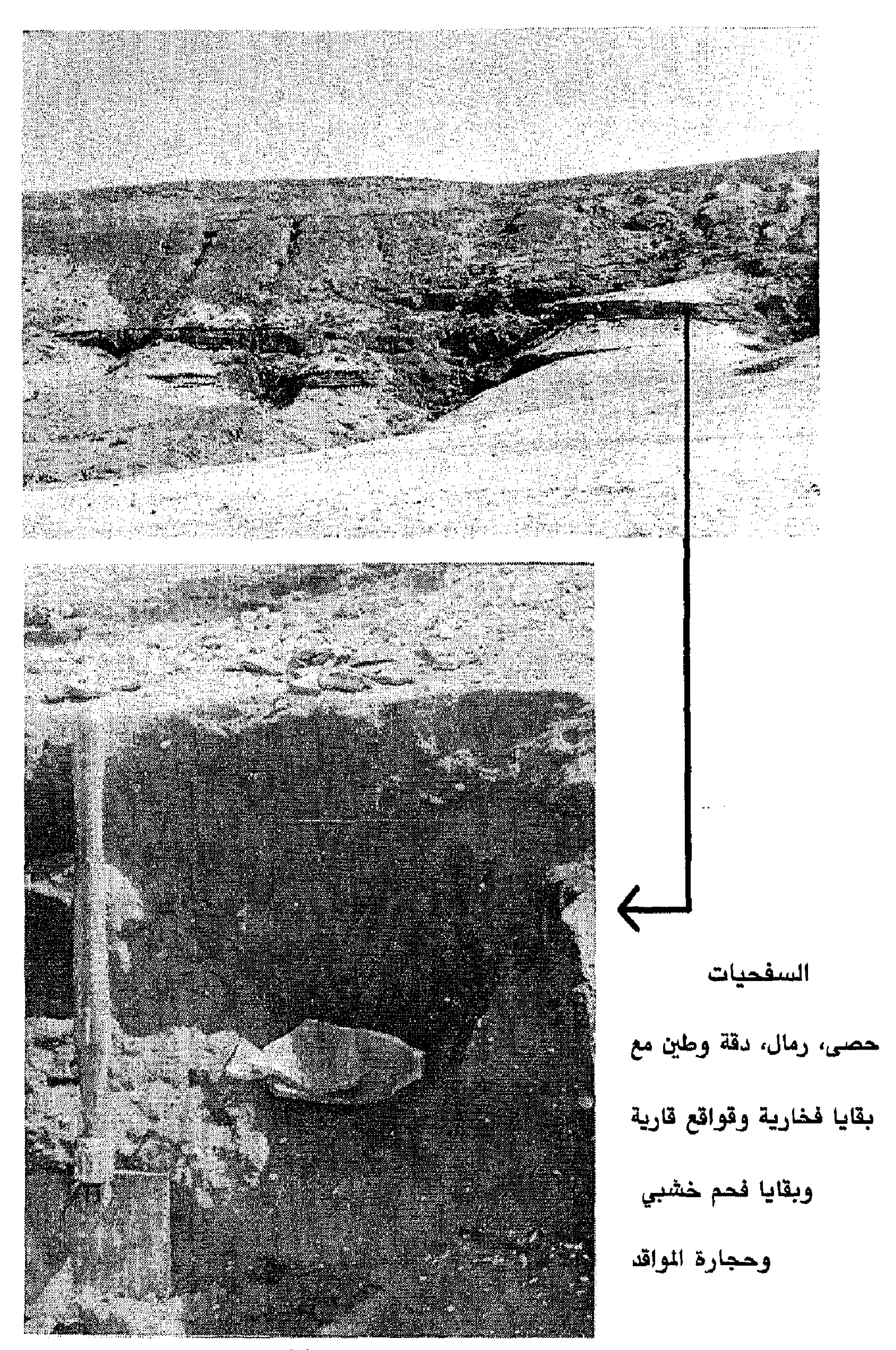
مقطع مشرع الكتان على وادي الفوارات (ط : 395.5 ع : 394)





شكل رقم 3

متوالية شاطئ الأمم



صور ا ج (2)

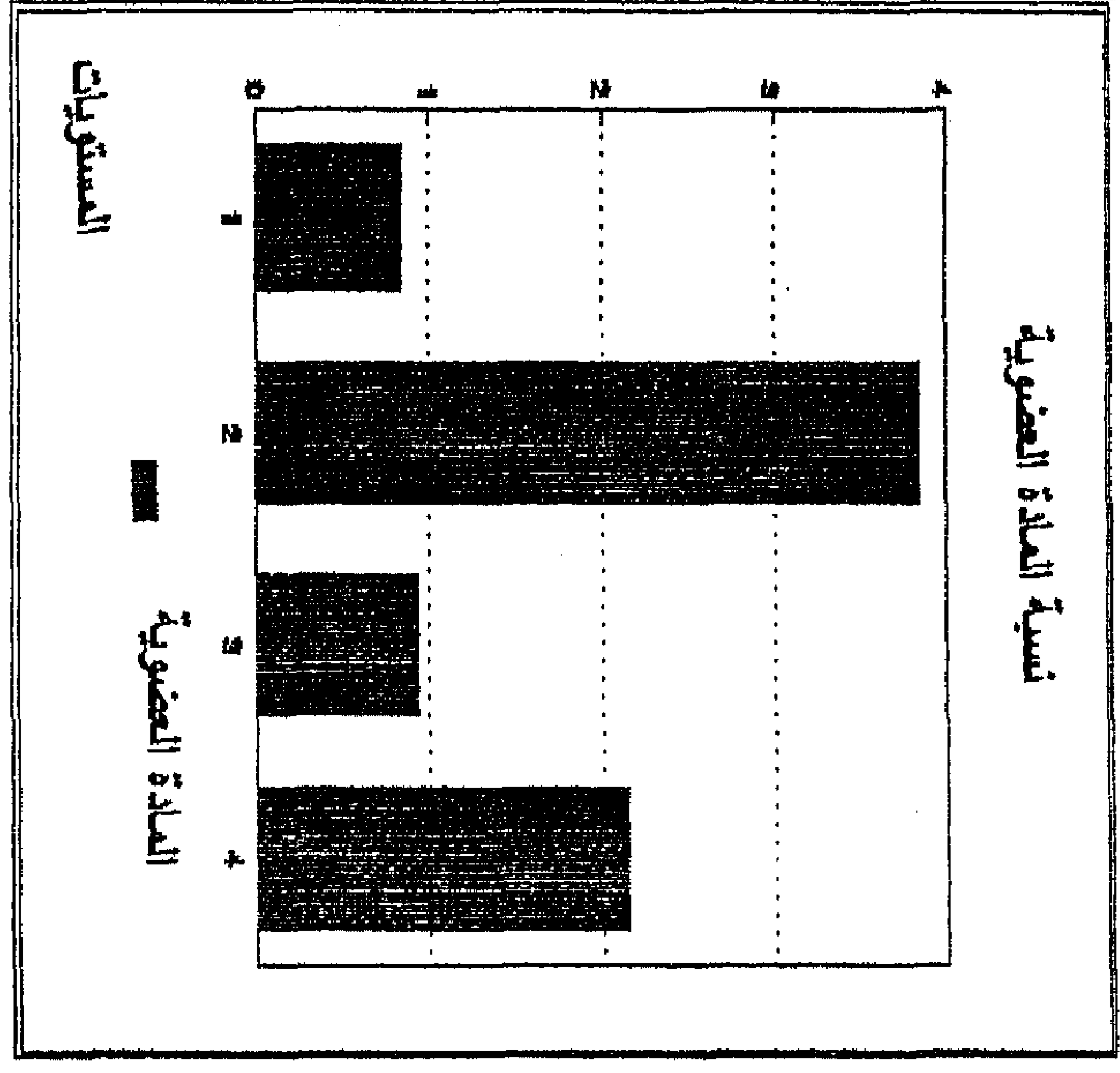
الخصائص الحبيبية لمستويات مشروع الكتان

الطين الدقة الناعمة الدقة الخشنة
الرمال الدقيقة الرمال الخشنة

0 20 40 60 80

1 2 3 4

المستويات



شكل رقم : 4

حفريات في اللغة، قد تفيد المؤرخ

محمد شفيق

ننطلق، لو تسمحون، من معطيات جلها معروف لدى الجميع، لكن التذكير بوجودها وتداخلها وتكاملها أمر ضروري، حتى لا تظهر الفرضية التي نحن بصدد عرض عناصرها وكأنها انبنت على نوع من الفراغ.

I - المعطيات الأثرية :

1 - «أدبني ج ئدبنان، *Adebni* pl. *idebnan*»

«ئدبنان، *Idebnan*» قبور في قلب الصحراء الكبرى، يرجع عهدها إلى ما قبل التاريخ. وأحدها يسمى «أدبني *Adebni*» باللغة الأمازيغية وهي عبارة عن تلال صغيرة من الحجارة المتراكمة، تختلف أحجامها وأشكالها الهندسية ؛ يتراوح طولها بين بضعة أمتار وثلاثمائة متر، وتتخللها ممرات و«حجرات»، لكن علوها لا يتجاوز بضعة أمتار. يوجد «ئدبنان، *Idebnan*» بكثرة في الأماكن الآتية أسماؤها : «تي نـ كاويا، *Ti-n-Kawya*» قرب

واحة «غاط، *Rhat*»، بمنطقة «أجّر، *Ajjer*» غربيّ «الفزّان، *le Fezzan*»، في ليبيا ؛ وقرية «تيط، *Titt Tit*» في «أهكّار، *le Hoggar*»، وسط الصحراء الجزائرية ؛ والمكان المسمى «تي نـ غرهوه، *Ti-n-gherboh*» (تي نـ غرزوز، بالنطق الأمازيغيّ المغربيّ)، بين «أدرار، *Adrar*» و«أهكّار، *Hoggar*».

هذه المقابر الأثرية لا تزال النساء التّركيّات (*Touarigues*) يتّخذنها مزارات : تتجرد الزائرة، في بيتها، من كلّ «حرز» كتب فيه اسم الله، ثم تقصد «أدبني»، وحين وصولها إليه تقرأ بعض التعازيم، متكاملة عن ذكر الله، ثم تنام (أو تتناوم) بجوار «أدبني» وأثناء نومها (أو تناومها) ينكشف لها –في حلم– ما كانت تريد أن تعرفه عن المستقبل أو عن غائب من الأهل والأقارب (De Foucauld, I, 159, *édbni* ; Camps, I, 66, 67, 68, 69 ; Foucauld, II, 793, 794, *timekelkelt*, Camps, II, 48, 49). أما في المغرب، فيوجد قبر أثري واحد من هذا النوع قرب واحة الطاووس، في أقصى «تافيلالت» (Camps, II, 61).

المحصّل هو أن «ئدبنان» قبور (أو ضرائح) مبنية بالحجارة المتراكمة في غير نظام مُعيّن، لها علاقة بالديانات القديمة، بما أنها لا تزال تتمتع بنوع من القدسية يرجع عهدها إلى «ما قبل التاريخ».

2 – «البازينات، *les bazinas*»

«البازينا» عبارة عن قبر يعلوه هرم جد صغير مربع القاعدة، أو مخروط أسطواني القاعدة «البازينا» مبنية بالحجارة المنضوضة المتراصة التي لاملاط معها، وهي مدرجة أو غير مدرجة علوها حوالي المتر الواحد في المتوسط.

يرجع عهد البازينات إلى ما قبل التاريخ أيضا، توجد بكثرة في منطقة الفزّان، بالجهة الجنوبية الغربية من ليبيا، وفي منطقة «الشلف» الأعلى بالجزائر (Camps, II, 63,64 ; Camps, I, 84, 85, 235, 236).

نسجل أن «البازينات» متقنة البناء بالقياس إلى ما هو ملحوظ في بناء «ئدبنان»، وأنها منتشرة في «الشمال» (نسبيا) أكثر مما هي منتشرة في الجنوب، وأنها أقدم من الأهرام المصرية، بما أن عهدها يرجع إلى ما قبل التاريخ، بينما عهد الأهرام المصرية محصور في

الزمن المؤرخ له، بما أن أقدم هرم، حسب ما هو معروف إلى الآن، هو هرم الملك «جوسر، Djoser» (حوالي 2700 ق. م.) المنتمي إلى الأسرة الثالثة.

3 - الضرائح الكبرى المخروطية الشكل الأسطوانية القاعدة

إثنان منها لايزالان قائمين سالمي البناء، يوجد أولهما على بعد 100 كيلومتر، تقريبا، غرب العاصمة الجزائرية، وغير بعيد من الساحل المتوسطي، هو ضريح ملكي موريتاني، لكن السكان المحليين سموه «قبر النصرانية»، وهي تسمية اعتباطية تذكرنا بأن سكان جبال أزرهون لا يزالون فيما بينهم يطلقون اسم «قصر فرعون» على أنقاض «وليلي، *Volubilis*» «قبر النصرانية» عبارة عن مخروط من الحجارة المتراصة المنضوضة، تحمله قاعدة أسطوانية ذات سَوَارٍ منحوتة، قطرها 62 مترا. أما ارتفاع الضريح فحوالي ثلاثين مترا وبالداخل دهليز حلزوني ينتهي بسالكه إلى حجرة صغيرة تتوسط المبنى، ويوجد ثاني الضريحين المعروف باسم «الضريح النوميدي» في المكان المسمى بـ«ميدراسن، *Médracen*» قرب جبال الأوراس، بالجزائر أيضا قطر قاعدة «الضريح النوميدي» 59 مترا، وعلوه 19 مترا ؛ وهو كثير الشبه بـ«قبر النصرانية». هذان الضريحان مدفنان لملكين أو أميرين أمازيغيين عاشا قبل اكتساح الرومان لنوميديا وموريتانيا بقرن أو قرنين حسب ما قدره المؤرخون (Camps, I, 97, 98, 157, 222 ; Camps, I, 223).

أما في المغرب الأقصى فتوجد بقايا لهذا النوع من الضرائح في قلب سهل «أسايس» (سايس، Le Sais)، داخل المثلث الذي ترسمه النقاط الثلاث : فاس، الحاجب، مكناس، خاصة بالمكان المعروف اليوم باسم «سوق القور» على مقربة من قرية «عين تاوجضاطّ». وليس بالصدفة أطلق عرب «سايس» اسم «القور» على تلك البقايا، التي لم يعد قائما منها إلا أجزاء من قواعدها، لأن «القارة»، التي جمعها قور، كما يقول «لسان العرب»، هي الأكمة، أو هي الجبيل الصغير المنقطع عن الجبال، أو هي من الأصاغر من الجبال والأعاظم من الآكام... ويوجد أثر أحد هذه الضرائح في سهل الغرب، على شكل تل مغطى بالتراب، قرب مدينة سيدي سليمان (Decret et Fantar, 70).

هذه الضرائح شيدها ملوك أمازيغيون، نوميديون وموريتانيون، شيدوها في عصور تاريخية حددت على وجه التقريب فيما بين القرنين الخامس والأول قبل الميلاد، هي

أضخم بكثير من «ئدبنان» ومن «البزينات»، ومتميزة في هندستها عن أهرام مصر، لكنها تتشابه و«ئدبنان» و«البازينات» و«الأهرام» المصرية في تخطيطاتها الأساسية العامة التي تطورت مع الزمان من البساطة إلى التعقيد دون أن تفقد ميزتها الأولى، وهي اعتماد البناء بالحجارة، وتخليل المبنى بالممرات.

4 - «الركامات» المغربية الصغيرة المسماة «ئكركورن، ئكركار، ئشرشار، ئشركورن، ئشرشارن»

واحدها «أكركور، أشركور، أشرشور»، الذي عرب فصار «كركوراً»، وتصغيره «تاكركورت» حتى الثلاثينات من هذا القرن العشرين كان المغاربة يَرْكُمُونَ الحجارة في كل مكان دفن فيه مجهول، خارج المقابر، أو اغتيل فيه إنسان معروف الهوية ونقل جثمانه إلى المقبرة وكان الركام الذي ركم لهذا الغرض يعتبر حُرْمًا ؛ وكانت التقاليد تفرض أن لا يمسه هَدْم، وأن يَرُدَّ إليه من يمر به كل حجرة انفصلت عن باقي الحجارة، وبعبارة أخرى، كانت لـ«أكركور» أو «تاكركورت» أو «أشرشور» قُدْسِيَّتُه (Taïfi, 344, *tas de pierres sacré* : Destaing, 338 ; Jordan, 124) وقد عرفت شخصيا، في صغري، ثلاثة «ئشركورن». وسنرى فيما بعد ما يربط هذه «الركامات» بـ «ئدبنان» و «ئدبنان» و«البازينات» و«الضرائح» النوميدية الموريتانية، وبالأهرام المصرية.

5 - الأهرام المصرية

وهي في غير حاجة إلى تعريف، من حيث هندستها ولا من حيث تاريخها. لكنا سنتساءل بعد حين عن مدلولها اللغوي الأصلي.

المستنتج من الربط بين هذه المعطيات الأثرية الخمسة، ومن المقارنة بينها، هو أنها، على تفاوت أزمانها واختلاف أشكالها، تنتمي إلى نمط من القبور موحد المَنْشَإِ امتدَّ مجاله عبر العصور، من قلب الصحراء، متَّجها في تطوره وجهة الشمال الشرقي من جهة، ووجهة الشمال الغربي من جهة أخرى ؛ فتفرعت عنه أنماط ثانوية، لكنه ظل هُوَ هُوَ، يعتمد رَكْمَ الحجارة أو التَّشْيِيدَ بها. وبما أن الأشياء بأضدادها، لا تظهر وحدتُه إلا عند التقائه في المجال بنمط آخر يعتمد الحفر في الأرض على شكل مطامير، أو في الصخور والأجراف، على شكل ما سماه السكان المحليون بالحوانيت ؛ وهو نمطٌ من الواضح أنه مستورد من

الشاطىء الشمالي والشمالي الشرقي للبحر المتوسط ؛ مجاله المغاربي محصور في الساحل الشرقي الجزائري وفي الساحل التونسي(Camps, I, 73, 74) . ولا يهمنا نحن، في هذا الحديث، إلا النمط الأول.

II – المعطيات التاريخية

الإله «أمون، Ammon, Amon» ظل هو أكبر آلهة مصر القديمة طوال تاريخ مصر القديمة؛ فكأنه هو الأصل، وما سواه فرع تفرع عنه «راع، Râ, Rê» فصار «أمون راع، Amon-Rê» عهد الأسرة الرابعة حاول «أخ ناتون، Akhenaton» أن يَحُدَّ من جبروته ومن نفوذ كهنته، فأخفق فانتقم الكهنة بتتويج «توت عنخ امون، Tutankhamon» بعد وفاة «اخ نـ اتون» ومن جهة أخرى، كان اليونان يُشَخِّصون «Amon» في أعظم آلهتهم، وهو «زوس، Zeus»، كما كان الرومان يشخصونه في أكبر آلهتهم، وهو «جوبيتير، Jupiter» .

وأكثر من هذا هُو أن عَدَدًا من أكابر اليونان اتخذوا «أمون» إلهاً لهم متميزًا عن «زوس» وحافظوا له على اسمه الأصلي، كما فعل، مثلا، القائد العسكري الإسبارطي «لوساندروس، Lusandros» المتوفّى سنة 395 ق.م. (Auboyer, I, 347) . «أمون» هذا عُرِفَ له معبدان رئيسيان اثنان، معهد «ثيبة، Thèbes» في صعيد مصر، ومعبد واحة «سيوه»، فما هو أقدم المعبدين ؟ وما هو الأصل فيهما وما هو الفرع ؟ كان المؤرخون يعتقدون أن الأصل هو معبد «ثيبة» بحكم المَيْلِ إلى الاعتقاد بأن مِصْرَ هي مَصدَرُ الإشعاع في البداية والنهاية لكنهم تراجعوا عن هذا الرأي، وأخذوا يرجِّحون أولوية «سيوه» وأقدميَّتها (Camps, I, 215, 216) . فبالإضافة إلى ما احتجوا به من الحجج في تغيير رأيهم، أرى من الفائدة أن يُلْفَتَ النظر إلى مُعْطَيَيْنِ تاريخيين اثنين، أولهما أن اليونانيين القدماء كانوا يُسمون واحة «سيوه، *Siwa*» باسم «أمون» نفسه، وكانوا يسمون الأمازيغيين الليبيين، سكان «سيوه» وما جاورها بالأمونيين «*Ammonioi*» واشتقوا من الاسم نفسه «ammoniac» الدال على مِلْح تفور به عيون المياه في سيوه (Bailly, 100)، وسيوه الآن مجموعة واحات، إحداها تُسَمَّى «أغرمي، *Aghormi*»، وبها توجد بقايا معبد «أمون» (Laoust, V) . أما المُعْطَى التَّاريخي الثاني الذي يستحق الاعتبار فهو أن «الإسكندر الأكبر، Alexandre» حينما اكتسح مصر وصَّاه مستشاروه — ومنهم «أرسطو»، كما هو معروف — وصَّوْه بأن يُعَرِّجَ على سيوه ويأخذ ما يُشبه البيعة من كهنة «أمون» في معبده،

إن كان يُريد أن يَسْتَتِبَّ له الأمر في مصر كلِّها ؛ ففعل، وعَبَرَ إلى سيوه، بجحافله، أكثر من 600 كيلومتر من الأراضي الصحراوية القاحلة. وإلى ذلك أشار الشاعر العربي الجاهلي، بقوله (لسان العرب، لابن منظور، مادة ثأط) :

بَلَغَ المَشَارِقَ والمَغَارِبَ، يَبْتَــغِي أَسْبَابَ أَمْـرٍ مِنَ حَـكِيمٍ مُرْشِـدِ
فَأَتَى مَغِيبَ الشَّمْسِ عِنْدَ مَآبِهَا فِي عَيْنِ ذِي خُلُبٍ وَثَأْطٍ حَرْمَدِ

يقول «اللسان» بأن البيتين لأمية (ابن أبي الصلت) أو لتبّع، «يَصِفُ ذا القرنين» ونضيف نحن أن الشاعر أشار إلى «أمون» بقوله «من حكيم مرشد» وأشار إلى عُيون سيوه الفوّارة بالمياه المثقلة بملح الأمونياك بقوله «في عين ذي خُلُبٍ وثأط حَرْمَدِ». لأن الخُلُبَ والثَّأْطَ الحَرْمَد هُمَا الحمأة والطِّين. والمهم هو أن زيارة الإسكندر لِسِيوَه ظل صداها يتردد في المشرق ما يقرب من ألف سنة، على الأقل، فسمعه عامّة الناس بتفاصيله، حتى إنه ألهم شاعرا جاهليا، في قلب الجزيرة العربية، قول البيتين المذكورين المتميزين بوضوحهما. ومما تجدر الإشارة إليه أن الباحث المتمزغ «روني باصي، René Basset» سجّل في أوائل هذا القرن أن «الكْوانش، *les guanches*»، سكان الجزر الخالدات، كانوا لا يزالون يذكرون إسما، هو «أمّان، *Amman*»، بمعنى السيد والمولى والرب، ويقرنونه في تعابيرهم باسم الشمس (Camps, I, 216).

والحاصل من هذه المعطيات التاريخية هو أن قرائن مهمة تُرجِّح كِفَّةَ أسبقيَّة «أمون» السِّيوِيِّ، وتجعل مصدر الإشعاع الديني الأول هو معبد سيوه، الذي في قلب الصحراء ؛ وبذلك تجعل سِيوَه هي أُمَّ الإزدهار الحضاري المصري بحكم سبقها إلى فرض العقيدة. لكن المؤرخين، مع ميلهم إلى هذه الأطروحة الجديدة لم يحسموا بعد بصفة نهائية (Camps, II, 158, 159).

III – معطيات جغرافية تاريخية، تؤيدها معطيات لغوية

تبرهن طوبوغرافية مناطق الصحراء الكبرى، كما تبرهن نوعية المرسبات الصخرية الراجعة إلى العهدين الحجريين، القديم والجديد، على أن ما هو معروف اليوم باسم الصحراء لم يكن صحراء في القديم. كانت تلك المناطق تتمتع بمناخ رطب، وكانت مكسوة بالأعشاب المُعْشوشبة، وبالأحراج. بل، وكانت بعض الجهات فيها تنبت أنواع

الشجر، كالسنديان، والجوز، والزيتون، والمَيْس، والصنوبر، والزيزفون وجار الماء، والبوقيصا، وتبرهن وفرة الرسوم والنقوش الأثرية (ما يقرب من 3000) المحفوظة على صفحات الجدران والأجراف الصخرية أن وَحِيشَ الصحراء كان متنوعا، وأن جيلين، أي جنسين، من البشر تعاقبا على «تعمير» الصحراء، أولهما أسود اللون، اختفى في أواخر الألف السابع قبل الميلاد لأسباب ما ؛ وثانيهما أبيض البشرة يتجلى وجوده هناك انطلاقا من الألف السادس قبل الميلاد ؛ مما كان يميزه ظهور الوشم على أعضاء الأشخاص الذين رسمت لهم رسوم في عهده (Camps, I, 40, 41, 42, 43, 44, H.J. Hugot, I et Hugot, II).
ويؤيد ما يخبرنا به الجغرافيون والمؤرخون معطيات لغوية أمازيغية، تدل على أن الصحراء الكبرى لم تكن صحراء منذ الأزل. هناك أماكن بعينها تسمى «تيط، *titt, tit*» أي عين الماء، أو «تيلماس، *Tilmas*»، وهو جمع «تالمست، *Talmest*» ؛ «تيلماس» إذن هي «عيون الماء»، (وبالإشارة، لهذا الجمع ما يُرادفه، وهو «تيلماسين»، الذي به سميت «تلمسان»، مع تحريف بسيط). وهناك أماكن تحمل اسم شجر لا ينبت إلا حيث الماء، كاسم «تيشيط، *Tichit, Tichitt*»، الذي معناه الخروب وأكثر من هذا أنه يوجد بموريتانيا، موريتانية الحالية، منطقة قاحلة شاسعة تسمى «تاكانت، *Tagant*»، أي الغابة...

إذن، نشأت في الصحراء حضارة بدائية أحدثها إنسان أبيض منذ العهد الحجري، إذ كانت المنطقة المعروفة بالصحراء خصبة، تشهد بذلك آثار متعددة. كان ذلك الإنسان يمارس القنص والقطاف (وُمّود، *ummud*، بالأمازيغية) ؛ ثم مارس تربية المواشي ؛ ويظهر أن تغير المناخ وانتقاله التدريجي من الرطوبة إلى الجفاف النسبي اضطر ذلك الإنسان إلى نوع من التخصص في تربية الضأن، لأنه قادر على التنقل من أجل الانتجاع... فلا غرابة في أن يتخذ ذلك الإنسان صورة الكبش إلها له، ولا غرابة أن تصحب تلك الصورة الإله ذلك الإنسان في نزوحه البطيء المستمر نحو الشمال وتتبُّعِه المناطق الرعوية في تقلصها. ولا غرابة أن يُتَّخذَ لذلك معبد قار، في نهاية المطاف الصحراوي، بمكان تتوفر فيه العيون والبحيرات ؛ فكان معبد «أمون»، معبد «سيوه». هذا كله في «ما قبل التاريخ».

هذا، وتخبرنا آثار العهدين الحجريين بأن مصر، أو المنطقة المعروفة الآن بمصر، لم تكن في ما قبل التاريخ (وحتى في «ما قُبَيْلَ التاريخ») أكثر «حضارة» من المناطق «الصحراوية» الأخرى ما لم تُضْحِ تلك المناطق صحراوية قاحلة بالفعل. أما منطقة المغرب الكبير، أي

المنطقة التي تحاذي الصحراء الكبرى من الجهة الشمالية الغربية فقد تأخرت عن الإسهام في إنشاء الحضارة «الصحراوية» بألفي سنة حسب التقديرات (Camps I, 56). ويغلب على الظن أن غطاءه النباتي، الكثيف آنذاك، هو السبب، نظرا لما كان يؤويه من السباع الضارية. وعلى أي، المعروف هو أن الهجرة إليه من قبل «الصحراويين» ظلت مستمرة باستمرار التصحُّر.

الخلاصة أن الحضارة الصحراوية القديمة طرأ عليها تحول ألجأها إلى التقلص والاستقرار في الواحات، من جهة، فتميزت بها واحة سيوة (أمّون)، وظلت شاهدة لها ممثِّلة أحسن تمثيلٍ ؛ وانزوت في وادي النيل، بحكم توفر الماء، فتطورت هناك وترعرعت، من جهة ثانية. واستمرت في نزوحها تجاه المغرب الكبير حيث حافظت، بحكم الجغرافيا والمناخ، على اعتمادها تربية الضأن خاصة، من جهة ثالثة. لاتزال قبائل مغربية تحمل اسم «أيت وولي، *Ayt Bu-Wulli*»، أي «بني صاحب الضأن»، وهو المترجم إلى العربية بـ«الشاوية»، في المغرب وفي الجزائر، كما ترجمت أسماء أخرى للأماكن أو للقبائل أو للأناسيّ.

IV – «معطى» أسطوري، أو تاريخي، له دلالته

يُحكى أن أحد أكاسرة فارس هو الذي اتخذ التاج غطاء لرأسه حتى يتميز به في مجلسه عن عامة القوم، فلما خلفه من خلفه أمر بأن يُصنع له تاج أكبر من تاج سلفه... وهكذا دواليك، إلى أن أصبح التاج أثقل من أن يحمله رأس الكسرى ؛ فعلق بسلسلة من ذهب إلى سقف قاعة الاستقبال فوق كرسي الملك، لكن حجم التاج استمر في التضخم من كسرى إلى آخر، إلى أن صار تعليقه خطرا على الجالس تحته.

فأوحى مهندس القصر ببناء سقف قاعة العرش على شكل تاج وهكذا أُحدثت القبة، واستغني عن التاج ولا يخفى ما آل إليه حجم عمائم العثمانيين الأتراك من الضخامة في تطوره من سلطان إلى سلطان.

٧ - المعطيات اللغوية

1 - المعطيات اللغوية الثابتة المحققة

أ - علاقة اللغة المصرية القديمة بالأمازيغية أمر محقق، تتجلى في المعجم بصورة ما، لأن المفردات تتطور بسرعة في أشكالها الصوتية ومضامينها الدلالية، ومع ذلك لا تزال أكثر من مائة لفظة مشتركة المعاني في اللغتين : «ثغص، ثقص»، العظم ؛ و«مّيس»، ابن... ؛ و«فود» الركبة ؛ و«سو»، إشرَبْ ؛ و«أوي»، جىءْ ؛ و«سين»، اثنان...الخ (Lefèbvre, 55, 116, 238, 240, 361, 384, 391). وتتجلى تلك العلاقة بصورة أوضح لا غبار عليها في وحدة جل الضمائر، المتصلة منها والمنفصلة، ووحدة عدد لا بأس به من حروف المعاني، كحرف الإضافة (ن، n)، وحرف التشبيه (م، ام، m، am)، وحرف الغاية والانتهاء (خر، غر khr, ghr, (Lefèbvre, 51, 58, 104, 251, 363)، وتتجلى بالخصوص، وبصورة قاطعة، في ما سميته، بالعربية، في النحو الأمازيغي، «الصيغة الموصولية» و«الصفة المشبهة بالفعل» (شفيق، 121 إلى 136 - 233 إلى 244، Lefèbvre). وتتجلى كذلك في وجود أفعال ينحصر عدد حروفها، أي عدد حروف مادتها الأساسية في حرفين اثنين (شفيق، 121 إلى 136 - 233 إلى 244، Lefèbvre). ومما لفت الأنظار أن اللهجة الأمازيغية التركْية (touarègue) هي الأكثر قرابة من المصرية القديمة (Lefèbvre, 3). والواقع هو أن التركْية هي اللهجة الأكثر حفاظا على جذور الأمازيغية وأصولها، وذلك بمفعول انعزال التوارڭ وانزوائهم في «جُزُرِهِم» الصحراوية. لا يزالون يستعملون لفظة تعني «القطاف، La cueillette» في مدلوله الإصطلاحي التاريخي، وهي لفظة «وُمّود، *Ummud*» التي معناها : «الفواكه التي تجنى من الغابات والحقول دونما غرس ولا زراعة» (De Foucauld, 1153).

ب - لغة سكان واحة «سيوه» («أمون» قديما) هي الأمازيغية، لا يزالون يتكلمونها، «فلا يتعلم أبناؤهم العربية إلا عند دخولهم المدرسة» كما يقول السيد الذي يراسلني منها (الرسالة المرفقة). عدد سكان الواحات التابعة لسيوه اليوم ستة آلاف على وجه التقريب، لم تندثر عيون «سيوه» ولا بحيراتها المحمّلة مياهها بالأملاح المعدنية. وقد وضع المتمزّغ الفرنسيّ «لاووست، Laoust» معجما للهجة السيوية في أواخر العشرينات، طبع سنة 1931.

ج - أحد المعطيات الأساية في هذا البحث، ولعله هو المعطى الرئيسي وهو بيت القصيد، يتجسد في الفعل الأمازيغي الذي معناه : بَنَى، يَبْني، ذلك الفعل هو : ثسكا، ثصكا، ثزكا، ثصشا، منطوقا هكذا في الماضي بالسِّين أو الصَّاد أو الزَّاي المفخمة، حسب اللهجات. صيغة الأمر فيه هي : «سكو، صكو، زكو، صشو... أو : سك» معناه بالضبط في اللهجات - إلا واحدة - هو بنى، شّيدَ ؛ أو : نَصَبَ، أقام (Delheure, I, 314 ; Boudot - Lamotte, 256 ; Taïfi, 628 ; Delheure, II, 200). أما اللهجة التي فيها للفعل «ثسكا» معنى آخر فهي التركِّية بالذات، أي اللهجة الأكثر احتفاظا بالأصول ؛ معنى «ثسكا، ثزكا» فيها هو : دفن، أقبر، قبر ؛ ومن مشتقاته : «تازكّاوت، *Tazekkawt*»، بمعنى الدفن والإقبار ؛ و«أزكّا، *Azekka*» بمعنى القبر (De Foucauld, 1950, 1951). والملاحظ هو أن لـ «أزكّا» المدلول نفسه في اللهجة القبائلية، مع أن الفعل «ثزكا» قد أميت فيها، حسب ما يظهر (Dallet, 939). ويؤنث «أزكّا» ويصغر على الوزن القياسي : «تازكّا» أو «تازكّات». فهل بالمصادفة أطلق اسم «تازكا»، في المغرب، قرب مدينة تازا (تازة)، على جبل هرمي الشكل مدرج حينما ينظر إليه من جهة الغرب ؟

2 - المعطيات اللغوية التي في حاجة إلى مزيد من الدرس والتحقيق

أ - صيغة اسم الإله «أمون» صيغة أمازيغية، سواء أشددت الميم فيها أم خففت، ولكن ما معنى هذا الإسم، وهل له من أثر في اللغة ؟

ب - «أبازين، *abazin*» هو الطعام الفقير الذي لا إدام معه، كالخبز الحَافِّ مثلا (Taïfi, 42) ؛ يُنْطَقُ في التَّركِّية «أباهين» لأن الزَّايَ فيها من الغالب أنه يُقْلَبُ هاء (De Foucauld, I, 97, abahin)، فهل من صلة لُغَوِيَّة بين «أبازين، *abazin*» (الطعام بلا إدام) وبين «بازينا، *bazina*» (البناء بلا مِلاَطٍ، (en pierres sèches) ؟ ومن سمى «البازينات، *Les bazinas*» بهذا الإسم، ومتى سَمَّاها ؟

ج - «ئغرم *ighrem*» معناه القرية، والحِصن (*le ksar*) وجمعه «ئغرمان، *Igherman*». فما قد تكون العلاقة بين هذا الجمع وبين الأمازيغيِّين الليبيِّين القدماء الذين كان اليونان والرومان يعرفونهم باسم «Garamantes» ؟، مع التنبيه إلى أن الحروف الثالثة الأخيرة في «Garamantes»، أي «tes» ما هي إلا زيادة إعرابية ؛ أما الأصل الذي لا علامة إعراب

معه فهو «*Garaman*» ومما تجدر الإشارة إليه أن اليونان كانوا ينسبون أولائك الأمازغيين إلى جد أعلى اسمه «Garamas»، كانوا يعتقدون أنه من أبناء الإله «Apollôn» المتجسّد في الشمس (Gaffiot, 703 -. Bailly, 389) ثم يجب التذكير بأن واحة «سيوه» التي توجد فيها بقايا معبد «أمون» اسمها الحالي هو «أغرمي، Aghormi».

د - سكان «سيوه» الحاليون يسمون أنفسهم «ئصيوان، *Isiwann*» (Laoust, V) واللفظة جمع، مفردة «أصيوان، *asiwan*» معنى «أصيوان» هو ذَكَرُ الحِدَأَةِ (le milan) يقول ابن منظور في «لسان العرب» : الحِدَأَةُ... طائر كان يصيد على عهد سليمان،... وكان من أصيد الجوارح، فانقطع عن الصيد لدعوة سليمان. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يخبرنا التاريخ بأن الإله الحافظ للملكية الفرعونية هو «هوروس، Horus» المُجَسَّد في صورة طائر جارح يرى المؤرخون أنه صقر (faucon)، وأرى أنا أنه حِدَأَة (milan) ؛ وحجتي في ذلك أن الإسم المصري يعني جنس الجوارح عامة، وأن المقصود به هو الطائر الجارح الكثير التحليق والدوران (oiseau planant) والحِدَأَةُ أكثر تحليقا ودورانا في السماء من الصقر ومن أي جارح آخر. ولكن رأيي ليس إلا وجهة نظر تحتاج إلى مزيد من الأدلة والبراهين، وتحتاج بالخصوص إلى ما يثبت أن بين «هوروس، Horus» و«ئصيوان، Isiwann» علاقة تاريخية واضحة المعالم.

هـ - لفظة «واحة» العربية معربة عن اللفظة المصرية العريقة في القدم «وحْيت، wḥyt» التي كانت تعني القبيلة من سكان البادية (Lefèbvre, 21). لِمَا تحول المعنى إلى ما هو مفهوم اليوم من «الواحة» في اللغة العربية ؟ أليس لأن كل عشيرة (أو قبيلة) من العشائر (أو القبائل) التي كانت تجوب الصحراء إذ كانت الصحراء خصبة اضْطُرَّتْ بمفعول الجفاف التدريجي إلى أن تستقر، استقرارا نسبيا، في منطقة محدودة بحدود المرعى، في مرحلة أولى، ثم إلى أن تنزوي وتركز سكنها في «رقعة» ظلت وافرة الماء، أثناء مرحلة ثانية ؟ فلربما يكون ذلك السبب في مغايرة المفهوم العربي العصري للمفهوم المصري القديم من كلمة «واحة وحْيت». أطلق المصريون اسم «وحْيت» على «القبيلة» إذ كانت القبيلة لا تزال قبيلة تبحث عن أسباب الاستقرار في منطقة ما، ولم تقتبس العربية اسم «الواحة» من المصرية إلا بعد أن تم استقرار القبيلة في «الرقعة» الصحراوية الخصبة التي استولت

عليها فصارت كلمة «الواحة» العربية يفهم منها «الرقعة الخصبة في الصحراء». ولنا في تاريخ القسم الغربي من الصحراء الكبرى ما يتقابل مع هذا كله إلى حد كبير ؛ توجد معطياته في اللغة الأمازيغية، وفي أسماء القبائل.

قبائل «زناڭا، Znaga» المعروفة في تاريخ المغرب الكبير هي التي تحول اسمها إلى «صنهاجة، Senhaja» بمفعول النطق العربي الذي اعتمده المؤرخون. الصيغة الأمازيغية لاسمها هي «ئزناڭن، Iznagen»، وهي جمع لمفرد صيغته القياسية هي «أزناڭ، Aznag» ومما يلفت النظر أن اسم «ئزناڭن، Iznagen» ذكر في مؤلفات الكاتب الروماني «بلينيونس Plinius» بصيغته الأمازيغية الدالة على الجمع، مع تحريف بسيط فرضته قواعد اللغة اللاتينية من حيث النطق بالأسماء الأجنبية (Gaffiot, 1700, Zangenae) ويبقى أن ينظر في ما قد يكون من صلة بين «أزناڭ ج ئزناڭن» وبين «أزنيكْ ج ئزنيكْن» الذي معناه «الرقعة المُعْشَوْشِبَة» والذي لا يزال متداولا في إحدى لهجات المغرب. هل كان مدلول «أزناڭ» و«أزنيكْ» مدلولا واحدا ؟ وهي يمكن أن يقرن بالتطور الذي طرأ تدريجيا على تعامل الإنسان مع المجال في المناطق المعرضة للتصحُّر طوال آلاف السنين ؟ هل أطلق اسم «ئزناڭن» في زمن من الأزمنة على مناطق خصبة محصورة محدودة بين مناطق أخرى تَمَّ تَصَحُّرُها، ثم أطلق ذلك الإسم في ما بعد على سكان تلك المناطق الخصبة المحدودة المتوفرة الكلإ والماء والمعرضة جوانبها إلى تَصَحُّرٍ يَتَحَيَّفُهَا شيئا فشيئا ؟ لماذا احتفظ سكان «فيكْيكْ» باسم «زناڭا» ؟ ألأنهم يسكنون مجموعة من الواحات ؟ هل كانت الواحات في الصحراء، منذ ثلاثة آلاف سنة، مثلا، أوسع نطاقا بقليل أو بكثير ؟ هل يعني «أزناڭ» أو «أزنيكْ» في أصل مدلوله المجال الضيق (نسبيا) المتوفر المرعى ؟

و - «الهرم» في مدلوله الإصطلاحي الهندسي ليس عربي الأصل : هو مصري في الصميم ؛ اقتبسته العربية من العامية المصرية، حيث كان – ربما لا يزال – يعامل تارة وكأنه جمع، وتارة وكأنه مفرد ؛ صيغته الأصلية هي «ئهرام، *ihram*» (Graffe - Plassner) ونقرأ في كتب اللغة المصرية القديمة أن هناك صوتا، بل حرفا صامتا (consonne) لم تكن قيمته الفونولوجية ثابتة ؛ هو الحرف الصامت الذي يرسمه المختصون بهاء لاتينية تحتها خط (h̲)، ويقولون إنه ينقلب خاء (ḫ) في بعض الحالات ؛ كما يقولون إن النطق بالهاء (h) والحاء (ḥ) يتغير أيانا (Lefèbvre, 28) هذا كله يفرض تساؤلا : ألم يكن في المصرية

القديمة حرف غين، فيكون هو الذي كان ينقلب خاء، كما يلاحظ إلى اليوم في الأمازيغية : «ئغف = ئخف = الرأس ؛ سويغ = سويخ = شَرِبْتُ» ؟ وهل من المجازفة أن يقال : إن بين لفظتي «ئهرام *ihram*» و«ئغرم، *ighrem*» علاقة محتملة، بإمكان المؤرخين واللسانيين أن يكتشفوها، إن تعاونوا، وإن كانت هي بالفعل موجودة ؟ والشرط الأساسي لكي يبحثوا عنها بنوع من الاقتناع (الموقت) بأنها موجودة هو أن يضعوا نُصْبَ أعينهم أهمية «الانجراف» الذي يطرأ عبر الأزمان على النطق بالألفاظ ما لم تدون كتابة، ومدى تطور الدلالات. قليل هو من يعرف، مثلا، أن الرُّمة قطعة حبل، حينما ينطق بالعبارة المشهورة «أعطاه الشيء برمته» وقليل من يعرف أصل تلك العبارة وقس على هذا...

VI – فرضية بسيطة يوحي بها هذا «الركام» من المعطيات الثابتة المحققة وغير المحققة المحتاجة إلى بحث طويل

الحضارة المصرية القديمة فرع مزدهر لحضارة بسيطة أقدم منها وأوسع مجالا، منشأها ما يسمى اليوم بالصحراء الكبرى، أو جزء من الصحراء الكبرى ؛ أنشأها أَنَاسِيٌّ بِيضُ البشرة في الحقبة «ما قبل التاريخية» الممتدة من أواسط الألف السادس قبل الميلاد إلى الألف الرابع، ثم تقطع مجالها وتجزأ بسبب التصحُّر المستمر، قبل أن تكون قد بلغت مداها، فورثت مصر زهرتها بفضل ماء النيل، واستثمرتها وَجَنَتْ يانعها. كان مُنْشِئوها في أول أمرهم يجوبون مناطق شاسعة تشمل الصحراء الكبرى، قبل أن تكون صحراء، وتشمل ليبيا ووادي النيل (ليس من المستبعد أن يكون اسم النيل اسما مركبا من حرف الإضافة «ن، *n*» ولفظة «ئلل، *Ilel*» التي معناها البحر والنهر العميق. كان منشئو تلك الحضارة يقتاتون من القنص والصيد والقطاف (*Ummud*)، ثم في مرحلة لاحقة من نتاج الماشية التي صاروا يربونها ويتنقلون (بها) لم يكونوا في حاجة إلى سكن قار، نظرا لاعتدال المناخ ؛ لكنهم، في فترة ما من تطورهم شعروا عند دفن موتاهم بضرورة تعليم مكان الدفن حتى يبقى ظاهرا للعيان معروفا. فركموا على مكان الدفن ركاما من الحجارة. فكان ذلك أول عهدهم بالبناء، في معناه الأوسع، فكان الفعل «ئزكا» بمعنى دفن وأقبر، ثم بمعنى بنى. أما الركام المغطِّي لمكان الدفن فانتشر العمل به وتطور حجمه إلى أن أصبح

«بزينا، *bazina*» فضريحا من نوع قبر «النصرانية» فهرما كهرم «خوفو، Chéops». «الكركور» (أكركور) هُو جَدُّ الهرم، تضخم حجمه كما تضخم حجم التاج الفارسي وحجم العمامة العثمانية. أما المادة اللغوية «غرم، *ghrem*» التي اشتق منها «ثغرم ج. ثغرمان، *ighrem* pl. *igherman*» والتي قد تكون لها صلة بالجذر المصري «هرم، *hrm*»، فَيَغْلِبُ على اعتقادي أنها تدل إما على الاستقرار في السكن، كما يدل عليه اللفظ العربي «حضر»، وإما على التشييد حينما تصبح عملية البناء تشييدا بما تستلزمه من مواد ومن تقنيات.

أما منشئو تلك الحضارة «ما قبل التاريخية» فتفرعت أرومتهم إلى فصائل وتفرقوا بعد ما تجزأ مجالهم الشاسع بمفعول التصحُّر فمنهم من مكث في الصحراء لاجئا إلى الجبال والواحات ؛ ومنهم من مكث حيث كان في واد النيل، فأخذ يتخصص في الزراعة إلى أن توفرت له أسباب العيش الهنيء المواتي لتنشيط الحضارة ؛ ومنهم من اتجه وجهة المغرب الكبير منتجعا بماشيته وبضأنه خاصة، إلى أن عَمرَ ربوع المغرب مواصلا فيها الانتجاع والحياة الرعوية المتنقلة (Gaffiot, 1046, *Numidae*-. Bailly, 1331, *nomadia*)، إلى أن أخذ يستقر استقرارا جزئيا لم يمكنه من ترسيخ أقدام الحضارة بالقوة التي رسخها بها إخوانهم المصريون الذين طوروا «أكركور» إلى أن صار هرما هائل الارتفاع معقد الهندسة الداخلية، صارت فيه ممرات «أدبني *adebni*» سراديب ودهاليز، وصارت فيه الحجارة كتلا من الصخر عظيمة ؛ لكن وجه الشبه بينه وبين «أكركور» و«أدبني» و«البازينا» و«ضريح ميدراسن» هو وجه الشبه القديم : كل من تلك المباني يعلو مكان دفن (أو قَتْلٍ)، لم «يُزَاحِمْ» نوعها من المقابر، في مجالها الأفريقي الشاسع، إلا عدد معدود من «المطامير» و«الحوانيت» التي سبق ذكرها، والتي لا يوجد لها أثر إلا على سواحل تونس وسواحل شرقي الجزائر. ومما لا شك فيه أن المسيحية فالإسلام غَيَّرَا طُقُوسَ الدفن وطرائقه ولم يبق من الطقوس والطرائق القديمة إلا ما ليس له شأن، كـ«الكركور».

سكان الصحراء الكبرى الأصليون، وسكان المغرب الكبير الأولون والمصريون القدماء، إذن، سلالة واحدة، اختلطوا شيئا فشيئا في العصور التاريخية بعناصر بشرية من سلالات أخرى وفدت من الشرق والجنوب والشمال. لن يثبِّت هذه الأطروحة أو يفنِّدها، بصفة حاسمة، إلا بحوث أنتروبولوجية أثرية معمقة وفحوص بيولوجية دقيقة بطريقة «بيرنار-

ضوصي، «Bernard-Dausset»، تلك الطريقة التي تعتمد على فحص سطوح الكُرَيّات الحُمْر من الدم وتبني استنتاجاتها على تصنيف الأشكال الهندسية التي تغطي تلك السطوح (J. Bernard) وباستعمالها قد يُعْرَفُ حتى من أين جاء المصريون والمغاربة القدماء إلى «الصحراء الكبرى» قبل أن تكون صحراء.

[illegible] ٢٢ [illegible] ١٩٩٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الأخ الفاضل / محمد شفيق

من واحة سيوه الخضراء إلى الشقيقة الرباط
العاصمة المغربية ذات التراث القديم من العصور التي
عندما حصلت على خطابك الأخير يا أخي الفاضل
التي أطير من الفرحة والبهجة والسرور من أجل عزيز
علينا [illegible] أن تصلني رسالتك من المملكة المغربية
من بلد شقيقة علينا.
أخبرك بنفسي: الاسم / أبا هاشم [illegible] أبا هاشم محمد
العنوان: مدرس [illegible] واحة سيوه
قد حصلت على خطابك من مكتب البريد جاء من طريق البريد الفاضل
التي فرح من أفراد واحة سيوه التي سيوه: [illegible]
حيث قراءة رسائلك وأنا [illegible] لغة البربر [illegible] ما
نسميها باللغة أو اللهجة السيوية حيث يتكلم أهل
الواحة كلها بهذه اللهجة حوالي عشرين ألف نسمة
أو [illegible] اللغة التي يجيد بها أهل الواحة كلها
يتكلمون باللغة السيوية لكي ننتقل إلى اللغة العربية
لازم من دخول المدارس لكي ننتقل من السيوي
إلى العربية وأعزك بأمر [illegible] رسالتك

بتاريخ / ٢٢ ديسمبر ١٩٩٦م

مقتطف من رسالة أجاب بها أحد سكان "سيوه" صاحب هذا المقال.

المراجع

BIBLIOGRAPHIE

J. Auboyer et A. Aymard, *Histoire générale des civilisations*, publiée sous la direction de M. Crouzet, volume I, *L'orient et la Grèce*, *P.U.F.*, 6ème édition, 1967.

J. Bernard, *le Sang et l'Histoire*, Ed. Buchet/Chastel, 1983.

J. Bernard, *le Sang des hommes*, Ed. Buchet/Chastel, 1981.

A. Bailly et E. Egger, *Dictionnaire grec-français*, Edition Hachette, 11ème édition (1ère édition 1894). (N.B. ces deux auteurs indiquent leurs sources).

A. Boudot-Lamotte, *Notes ethnographiques et linguistiques sur le parler berbère de Timimoun*, Imprimerie Nationale Française, Paris, 1964.

G. Camps (I), *Berbères aux marges de l'histoire*, Edition des Hespérides, 1980.

G. Camps (II), *les Berbères, mémoire et identité*, *Editions Errance*, 1987.

J. M. Dallet, *Dictionnaire Kabyle-français*, Edition SELAF, Paris, 1982.

F. Decret et M. Fantar, l'*Afrique du Nord dans l'Antiquité*, Ed. Payot, Paris, 1981.

J. Delheure (I), Agerraw n iwalen teggargrent - tarumit, *Dictionnaire ouargli-français*, SELAF, 1987.

J. Delheure (II), Agraw n yiwalen, tumzabt - t - fransist, *dictionnaire mozabite-français*, SELAF, 1984.

E. Destaing, *Dictionnaire français-berbère*, Edition Ernest Leroux, Paris, 1914.

Ch. de Foucauld, *Dictionnaire touareg-français*, 4 volumes, Imprimerie Nationale de France, 1951.

F. Gaffiot, Dictionnaire illustré latin-français, Edition Hachette, 1934 (N.B. Gaffiot indique ses sources).

E. Graffe - [M. Plessner], Encyclopédie de l'Islam, nouvelle édition, G.P. Maisonneuve et Larose S.A., Paris, 1975, volume III, article "haram" p. 177.

H. J. Hugot (I), *le Sahara avant le désert*, éditions des Hespérides, Toulouse, 1974.

H. J. Hugot (II), *Sahara. Dix mille ans d'histoire. Regards sur un paradis perdu*, Bibliothèque des arts, 1976.

A. Jordan, *Dictionnaire berbère-français*, Editions Omnia, Rabat, 1934.

E. Laoust, *Siwa*, Ed. Ernest Leroux, Paris, 1931.

G. Lefèbvre, *Grammaire de l'égyptien classique*, 2ème édition, Ed. Institut français d'Archéologie Orientale, le Caire, 1955.

M. Taifi, *Dictionnaire Tamazight-Français*, Edition l'Harmattan - Awal, Paris, 1991.

محمد شفيق، اربعة واربعون درسا في اللغة الامازيغية، (نحو وصرف، واشتقاق)، النشر العربي الإفريقي، الرباط، 1991.

حول التحرُّكات البشرية بمجال المغرب الأقصى فيما بين منتصف القرن الثاني عشر ونهاية القرن الثالث عشر للميلاد*

محمد القبلي

لعلّ من أبرز الثوابت الممتدة عبر تاريخ الرقعة المجالية المعروفة باسم الغرب الإسلامي في العصر الوسيط أن العصر كله عصر تحرُّكات بشرية متقلبة شديدة التَنوُّع. بمعنى أن كل طرف من الأطراف المجالية المكوِّنة لهذه الرقعة المترامية قد تأثر عَبْرَ مختلف الحقَب الوسيطية بمجموعة من التحرُّكات المتباينة التي همّت كلاّ من الأرياف والمدن والحواضر على السواء. وبما أن المصادر المتوفِّرة لدينا قد وقفت عند بعض هذه التحرُّكات أكثر بكثير ممّا وقفت عند بعضها الآخر، فلنقل إنها جميعا قد صُنفت من الزاوية المصدرية صنفين اثنين أبرزهما صِنْف التحركات الجماعية المكتسِحَة القائمة على التنافس وما يتبعه من صراع وتحالفات قبلية محدودة أو موسّعة. وإذ لم يكن هنالك بدّ من مسايرة المادّة المصدرية في محاولتنا التمهيدية هذه، فلقد كان من المحتم أن نأخذ بتوجُّهها الغالب فنركز عند تناول العيِّنة المجالية المحددة هنا على نفس التحركات البارزة المكتسِحَة دون غيرها من

(*) تمّ التقيُّد في هذا البحث بالعنوان الأصلي والفحوى العام للعرض الشفهي، وذلك رغم التَّوسُّع الذي أملته ضرورة التَّوضيح والاستشهاد بأكثر ما يمكن من النصوص على مستوى التَّحرير.

التحركات التحتية التي صُنِّفت في حيز آخر رغم أهميتها الخاصة بالنسبة للفترة التي تهمنا ومن بينها حركة بداية النزوح من الأندلس وكذا تلك الهجرة الاستيطانية لفئات معيَّنة من المغاربة في اتجاه الشرق الإسلامي بالإضافة إلى حركة التواصل البشري الدائر حول تجارة الأبيض المتوسط.

ويبدو أن التفاوت المسجَّل في تعامل الإسطوغرافية الوسيطية المغربية مع مختلف أنواع التحركات البشرية المشار إليها ليس براجع لمجرد الصدفة. ولعلّ السر في تفضيل الصنف الخاص بالتحرُّكات المدوِّية الكبرى أنها تحرُّكات جماعية محارِبة من جهة ؛ وبالتالي فإنها مرتبطة من جهة أخرى بما يمكن أن يسمَّى بظاهرة الدولة وصيرورة الحكم. وبديهي أن لكل من هاتين الصفتين المتكاملتين بعداً سياسيا عسكريا لا يمكن إغفاله على مستوى التدوين وصياغة الصُّوَر والبَصمات. وبديهي أيضاً أن وفرة هذه الصُّور والبَصمات لا تعني ارتفاع نقط الظل بقدر ماتعني ضرورة تطويق هذه النقط بالذات، وذلك بهدف القيام بقراءة أخرى من الخَلْف إن صح التعبير أو من زاوية إضافية غير معتادة على الأقل.

ويجب أن نضيف بالنسبة لما أسميناه في العنوان بالمغرب الأقصى أن هذه التسمية قد أصبحت مشروعة تاريخيا في الفترة المحدَّدة. ذلك أن مجال «المغرب الأقصى» قد أصبح مجالاً مُتميّزاً ضمن بقية مجموع المجال الإقليمي المجاور ابتداءً ممَّا يعرف بالعصر المرابطي وقبيل فترتنا هذه. بدليل أن عبارة «المغرب الأقصى» قد غدت رائجة مع نهاية هذا العصر المرابطي في منتصف القرن الثاني عشر للميلاد حيث نجدها قد حلت في المصادر محلّ عبارات أخرى كعبارة «أقصى المغرب» وعبارة أقصى الغرب أو «أقصى بلاد المغرب» مثلاً. وبما أنه قد سبق أن وقفنا عند هذه النقطة في غير هذا المكان[1]، فلنكتف بالإشارة إلى أن محتوى العبارة المستحدثة لم يكن جغرافياً صرفاً وإنما كان جغرافياً-سياسياً-عسكرياً في نفس الآن.

وممّا نتج عن هذا التداخل السياسي-العسكري-الجغرافي أن الرقعة المجالية التي تنطبق عليها عبارة «المغرب الأقصى» قد تقلصت من جهة الشرق فيما بين منتصف القرن الثاني عشر وبداية القرن الموالي، وذلك من جرَّاء تجاذب التخوم الشرقية بين معسكري بني مرين وبني عبد الواد. وأيا كانت أهمية التقلص أوالامتداد طيلة هذه الحقبة الأولى من التنافس المريني-العبد الوادي المستمر، فالغالب أن النواة المركزية لما عرف آنئذ بمجال

المغرب الأقصى قد حُدِّدت دائما من جهة الشرق بواسطة الخط التقريبي الواصل بين أراضي ملوية السفلى وبين شرقي أراضي التوات أو ما أسماه ابن خلدون ببلاد «بودة وتمنطيت في قبلة المغرب الأقصى»[2].

وهكذا نكون قد حصرنا دائرة البحث في مجال معيَّن وخصصناه لتحركات بشرية معيَّنة في فترة زمنية محدَّدة. ولعل من نافلة القول أن نشير إلى أن الفترة الزمنية التي اخترناها قد سجلت ظهور دولتين اثنتين استقرتا داخل نفس المجال بالدرجة الأولى هما دولة المصامدة الموحدين ودولة زناتة بني مرين. ومعلوم أن بداية هذه الفترة قد اقترنت ببداية استقرار الدولة الأولى بينما اقترنت نهايتها بنهاية استقرار الدولة الثانية. ومعلوم أيضاً أن قيام كل دولة يؤول في الواقع إلى انتصار تحرُّك بشري غالب يرمي إلى اتجاه معيَّن غالِب كذلك. ومعنى هذا أن لكل تحرُّك غالب تحرُّكات مواكبة وأخرى مناوئة أو معارضة قد تختلف أهميتها باختلاف الظرفية والأحوال. على أن الملاحظ بهذا الصدد أن الأبحاث المهتمة بهذه القضايا قد عمدت في الغالب إلى عَزل هذه التخركات عن بعضها مع إعطاء نوع من الامتياز لتحركات القبائل العربية الهلالية التي ظهرت لأول مرة بمجال المغرب الأقصى في هذه الفترة بالذات. وبالتالي، أفلا يمكن محاولة ربط الصلة بين واقع هذا التحرك العربي الهلالي وواقع غيره من التحرُّكات الأخرى المعاصرة ؟ وبعبارة أدق، ألا يمكن الجمع بين كل مجموعة من التحرُّكات البشرية المتزامنة ضمن إطار حدثي متكامل وربما ضمن منظومة سلوكية خاصة محدَّدة ؟

لننطلق من التحرُّكات المتزعِّمة الغالبة التي أدت إلى قيام كل من دولة الموحدين ودولة بني مرين. ولنحاول أن نتعرف على هذه التحركات البشرية الغالبة بالرجوع إلى مرجعين اثنين يهمان كل تحرك بشري مماثل ويتصل أحدهما بالبواعث المحرّكة وما يتبعها من حركية خاصة مميَّزة بينما يتصل المرجع الثاني بنوعية تعامل كل من هذه التحركات المتزعمة الغالبة مع التحركات المنافسة أو المناوئة ومع المحيط البشري بوجه عام. ولربما تبيَّن لنا عند تلمُّس مختلف هذه الجوانب أن هنالك نتائج ومضاعفات قد نعود إلى أهمّها في مرحلة أخيرة.

المرجع الأول : البواعث والحركية المميِّزة

لننطلق من المقولة الشائعة التي تربط تجارب الدول المغربية المتعاقبة كلها بحافز التوسُّع في اتجاه السهول الأطلسية باعتبار خصبها وتوسُّطها بين الجبل والبحر. ورغم أهمية العامل التوسعي في حد ذاته كمحفِّز طبيعي متكرِّر، إلا أنه لا مانع من التساؤل حول وضعه الدقيق بالنسبة لكل من التجربتين الموحدية والمرينية.

ذلك أن التحرُّك المريني في أول أمره تحرُّك رَعَوي مدفوع بدافع التوسُّع المجالي الصرف بعيداً عن كل اعتبار آخر بالرغم ممَّا تدَّعيه الإسطوغرافية المرينية الرسمية أو الشبيهة بالرسمية. بدليل أن القبائل المرينية التي دأبت على التنقل بين وادي ملوية وبلاد الواحات لم تتردَّد بتاتاً في استغلال أول ثغرة ظهرت في صرح الدولة الموحدية الحاكمة غداة انكسار جيشها بوقعة العقاب بالأندلس سنة 1212/609. ومعلوم أن استغلالها لهذه الثغرة الكارثية قد تمثل في اكتساح المسارح التلية بالشمال الشرقي في مرحلة أولى قبل أن تتِمّ مهاجمة سهلي الهَبْط وأزَغار بالشمال الغربي، ممَّا أدى إلى الدخول في صراع مباشر مرير مع قبائل ريَّاح العربية التي كانت قد كلِّفت بحماية هذين السهلين من قِبَل السلطة الموحدية وباسمها. وبالتالي فإن عامل انتزاع الأرض واكتساح المراعي السهلية عاملٌ مؤسِّس لا محالة بالنسبة للتجربة المرينية كلها[3]. أما التجربة الموحدية فنجدها مغايرة تماماً رغم الالتقاء في النزعة الطبيعية نحو الخصب والرخاء. ذلك أن النّفاذ إلى السهل بالنسبة للموحدين الأوائل لم يكن يعني مجرد التحرك من أجل الانتشار وإنما كان يعني رفع الحصار العسكري المضروب على الحرَكة التُّومرتية من قبل المرابطين وبالتالي على الجبل. ومعلوم أن هذا الحصار نفسه هو الذي حكم على التحرُّك البشري الموحدي بالانصراف مؤقتاً عن السهل وإعطاء الأولويَّة إلى التَّحكُّم في الجبل على امتداد السلسلة الأطلسية كلها بالإضافة إلى مرتفعات غمارة بالريف الغربي، وكلٌّ ذلك بهدف تطويق السهل بدوره وإجبار الحاكم على المطاردة والنِّزال في ميدان غير ميدانه[4]. ومن الواضح أن تحركاً هادفاً كهذا الذي قاده عبد المومن بن علي الموحدي عَبْر زهاء عقدين من الزمن قد جاء نتيجة لتخطيط سياسي–عسكري يرمي إلى إزالة دولة وإقامة دولة أخرى. وبالتالي فإن الحافز السياسي–المذهبي هنا هو الحافز المؤسِّس قبل غيره حسبما يبدو.

أمَّا التعامل الموحدي مع السهل بعد رفع الحصار عن الجبل وتوفُّر إمكانية التوسع والانتشار، فلعله يدعو إلى شيء من التأمل اعتباراً لبعض الملاحظات الجزئية التي تكاد تفرض نفسها :

أول هذه الملاحظات أن الموحدين الأوائل قد امتنعوا عن سكنى العاصمة المرابطية مراكش بعد دخولها وقتْل العديد من سكانها بشهادة الرواية الموحدية المعاصرة. ولولا الفتوى التي استصدرت في شأن ما سُمِّي بتطهير المدينة عن طريق هدم جوامعها وإقامة جوامع أخرى لما سُكِنَت من قِبَل الغزاة رغم وضعها الستراتيجي المتميِّز المعروف بالنسبة لكل من يروم الامتداد نحو السهول الغربية المجاورة وبخاصة سهل دُكَّالة بمعناه الوسيطي الأوسع[5].

والملاحظة الثانية لها اتّصال بأسلوب التَّعامل الموحدي المباشر مع مجموع هذه السهول. فالرواية المعاصرة تقف عند تصفية قبائل برغواطة النازلة بسهل تامَسْنا وكذا عند تقتيل وإضعاف مُجْمَل قبائل دُكَّالة النازلة بالسهل الذي يحمل نفس الإسم. ومعلوم أن هذه العمليات الدموية التي تكاد تشبه في الواقع نوعاً من محاولة الاستئصال قد ردت إلى التمرُّد الصَّامد والعِصْيان ورفْض ما تُسمّيه السلطة القائمة المتغلِّبة بعقيدة التوحيد. ولقد تُوِّجت هذه الحملة من قِبَلِ الموحدين بما يعرف بعملية «الاعتراف» الدموية التي نُظِّمت على مستوى بعض كبريات المدن وبقية الأرياف بجنوب المغرب على الخصوص سنة 1149/544[6].

والملاحظة الثالثة المترتبة عن سابقتيها تتلخص في أنه ليس هنالك ما يسمح بالقول بأن مصامدة الجبل الغُزَاة قد نزلوا بنفس هذه السهول التي تغلَّبوا عليها رغم توفُّر الفراغ الناتج عن الحرب وما تلا الحرب من تقتيل جماعي واضطهاد. ولعل ممَّا يسمح بافتراض إحجام القبائل الموحدية إراديا عن مَلْء هذا الفراغ أن التفكير في استقدام القبائل الهلالية من إفريقية وتوزيعها بالسهول الأطلسية المجاورة لمراكش لم يبطِئ كثيراً، بل لربما ظهر قبل تدشين العملية كلها على أرض الواقع بكثير. فالمعروف أن الخليفة الموحدي الأول هو الذي دشَّن بنفسه

مسلسل استقدام القبائل الهلالية وتوزيعها سنة 1161/555، أي بعد مرور حوالي عشر سنوات فقط على عملية «الاعتراف». وهنالك ما يشير إلى أن الفكرة في حد ذاتها قد تعود إلى ما قبل ذلك بسنوات، إذ لربما راودت ذهن الخليفة المذكور ابتداء من سنة 547 للهجرة حسبما يفهم من مُذكّرات البيدق المعاصرة وإن كان السياق يقتضي أن يكون ذلك قد وقع في السنة الموالية[7].

وهنالك مؤشر آخر بَعْدِي لتأكيد ما يمكن أن ننْعَتَه بإمساك هذه القبائل الجبلية عن القيام بأي تحرك استيطاني مكثف نحو الأراضي السهلية المجاورة سواء بُعَيْدَ قيام الدولة مباشرة أو بعد تشييد الامبراطورية الموحدية التابعة لها. هذا المؤشر يعود تاريخيا إلى الفترة التي تتراوح ما بين تبرؤ الخليفة المامون من العقيدة التُّومرتية الرسمية وبين عودة ابنه الرشيد فيما بعد إلى الاعتراف بنفس العقيدة، أي إلى ما بين سنة 1229/626 وسنة 1234/632. لقد انقسمت الخلافة الموحدية على نفسها طيلة هذه المدة فكان هنالك يحيى بن الناصر بالجبل وكان عمه المامون ثم ابن عمه الرشيد بمراكش. وبينما اعتمدت العاصمة على ميليشْيا المسيحيين وقبائل الخلط الهلاليين في مطاردة يحيى بن الناصر، نلاحظ أن مجمل القبائل المصمودية الجبلية المؤسِّسَة قد مالت مع هذا الأخير فالتفّت حوله مُعلِنة عن عصيانها من أعلى قمم الأطلس الكبير[8]. والظاهر من مثل هذا الوضع أن القبائل الموحدية قد احتفظت بقاعدة انطلاقها الأولى كمجال حيوي رئيس مُفَضَّل رغم مشاركتها في تأطير هياكل الدولة وتوسيع رقعتها وعدم القبوع المطلق داخل الجبل. ولعل من شأن هذا الموقف في حد ذاته أن يدعُوَ إلى مراجعة التصَوُّر الشائع المسلَّم به حول الجبل ووضعه على مستوى الذهنية العامة نفسها كمُجرد ملجإ لإيواء القبائل المُستضْعَفة المتراجعة من السهل أو التلّ أمام تقدُّم مختلف أصناف الغزاة.

ومهما يكن من شيء، فقد يبدو من الواضح البيِّن أن التوجه الموحدي هنا توجُّه مخالف للتوجُّه المعتاد كما رأيناه من خلال التجربة المرينية. كيف أمكن هذا التوجه وما معناه بالضبط ؟ ربما كان الجواب مرتبطاً بمعطيات تتَّصل بنوعية العلاقة القائمة بين كل تحرك بشري وغيره من التَّحرُّكات المواكبة والمحيط بوجه عام.

المرجع الثاني : علاقة التحرك الغالِب بالغير والمحيط

أولا: النموذج الموحدي

لتوطين هذه العلاقة بالنسبة للتحرك الموحدي الغالب، ينبغي التذكير أساسا بالوضع القانوني للأرض التي غُلِب عليها أهلها ضمن المنظومة الموحدية. والواقع أن هذا الوضع نفسه مقتبَس من حكم صاحب الأرض المغلوب على أمره وأرضه بالنسبة لنفس المنظومة. ذلك أن صاحب الأرض المفتوحة عنوة إمَّا كافِرٌ يجب قتله وإمَّا عَبْدٌ مُسْتَرَق تسقط مِلكيتُه لفائدة سيده، أي لفائدة الدولة الموحدية كجهاز وبنية تراتُبية قبلية-مذهبية. ومن أحسن ما يمثل لهذه الظاهرة شهادة وصفية دقيقة معاصرة للأحداث تتناول بكامل التفصيل كل ما تحمَّله أهل مكناسة من جراء هذا الوضع بالذات فتذكر ضمن ما تذكره أنه قد «**تملَّك الموحدون البلاد والأموال، وصار الناس عُمَّاراً في أملاكهم**، يؤخذ منهم نصف الفواكه الصيفية وثلثا غلة الزيتون». ولقد ترتَّب عن قساوة هذا الوضع وما واكبه من تجاوزات على صعيد التنفيذ أن اضطُرَّ القائمون على الفلح من بين السكان الأصليِّين إلى الفِرار «**عن الأرض وتركها حتى تبوَّرت**» على حد تعبير الرواية. وبما أن صاحب الاستبصار قد وقف على هذا «التَّبَوُّر» بنفسه على عهد يعقوب المنصور سنة 587 للهجرة وأعرب عن أسفه له حين عبَّر عن إعجابه بهذه «**البلاد العتيقة المجيدة لو كان بها خدمة لغلاتها**»، فالراجح أن نفس الخليفة المنصور هو الذي يكون قد عمل على تدارك الأمر بغية تحسين الوضعية عن طريق اللجوء إلى ما تُفصِح عنه الشهادة الوصفية الأولى من «مُقاطَعة» الأهالي «على الفواكه والتخفيف عليهم في شركة الزيتون» ودون أن يتمّ مع ذلك التَّخَلِّي عن مبدإ نزع الملكية والاحتفاظ بها مبدئيا للدولة[9].

هذا فيما يتعلق بالأراضي التي مكث بها أهلها بعد الهزيمة وتسليم الأمر للموحدين. أما فيما يتعلق بالأراضي الفارغة نسبياً كأراضي برغواطة ودكالة على الخصوص، فالمعروف أنها قد أسْنِدَت على مراحل إلى قبائل جُشْم من بني هلال لا على سبيل التَّملُّك وإنما على سبيل الانتفاع مقابل الخدمة العسكرية وأداء الزّكوات الشرعية لبيت المال. وبما أن هذه التحرُّكات العربية قد حظيت باهتمام نسبي من قبل الدارسين حتى الآن[10]، فلنكتف بالإشارة إلى ما لم يتم الانتباه إليه بعدُ في أقرب الكتابات المعاصرة للمنصور

الموحدي من تَغْيِيب واضح للظاهرة عموماً وخاصة منها تلك الحلقة الأخيرة التي تمت على يد اللمنصور بالذات[11]. وإذا ما لم يكن هذا التَّغْيِيب راجعاً لمجرد الصدفة، أفلا يمكن أن يكون نوعا من الانعكاس لما تفصح عنه الرواية المعاصرة نفسها من خلال الوصية المنسوبة إلى المنصور بهذا الصدد ؟ ذلك أن الصيغة الأصلية للرواية المتعلقة بهذه الوصية قد ألحَّت على ضرورة «مُدَارَاة العرب» المستقدَمين «ومُلاطفتهم والإحسان إليهم وشَغلهم بالحركات» وكأن الأمر يتعلق في ذهن صاحب الوصية بسياسةٍ تعميريةٍ جديرة هي الأخرى بالتعديل والمتابعة والاحتياط[12].

وبالتالي فإن التعامل الموحدي مع الأرض والمجموعات البشرية الأصلية أو النازلة بها قد جاء متأثّراً بمعطيات عَقَدية وأخرى جيوسياسية جعلت المغلوب يتحرَّك أحياناً أكثر من الغالب حسبما يبدو.

تُرى كيف كان التَّعامُل المريني الذي خَلَفَه مع نفس هذه العناصر ؟

ثانيا : النموذج المريني

يمكن التعرف على مميزات هذا التعامل من خلال الملاحظات الآتية :

أولا : بالنسبة لفترة البدايات، يلاحظ أن هنالك نوعا من السلوك المتأرجح بين السعي إلى العمل على الانتزاع الجماعي للأرض من الأقوى وبين حماية المستضعف مقابل إتاوة مَوْسِمِية معلومة[13].

ثانيا : بالنسبة لعملية الانتزاع الجماعي والتغلب على الأراضي، يلاحظ أنها قد تمت في مراحل متباعدة وعلى حساب قبائل رياح العربية النازلة بسهل الهَبْط وسهل أزَغَار كما أسلفنا ثم على حساب قبائل الخُلْط وسُفْيان النازلة آنئذ بتامَسْنا، وذلك بعدما ضعفت هاتان القبيلتان من جراء خوضهما في الصراعات الموحدية الداخلية ابتداء من موت الخليفة المستنصر سنة 1224/620. وبالتالي فإن العملية في جملتها قد همَّت أكبر قسم من السهول الغربية التي ساد فيها الحضور العربي الهلالي وتَمَّ إنجازها فيما بين نهاية القرن الثاني عشر ومنتصف القرن الثالث عشر للميلاد[14].

ثالثا : في نفس هذه الحقبة من الزمن، يلاحظ أن القبائل المرينية قد زُوحِمت باستمرار مِنْ قِبَل قبائل المَعْقِل العربية التي كانت تشاطرها من قبل نفسَ المجال الرعوي بأقصى

المغرب الشرقي. ذلك أن هذه القبائل المعقلية قد تغلبت من جهتها آنئذ بمعية بني وطّاس على الريف الشرقي وانتشرت بساحل تَمْسَمان «حين ضعف أمر الموحدين فيه». ومن جهة أخرى فإننا نجد نفس قبائل المعقل حاضرة بجانب بني مرين بنواحي الغرب وضاحية فاس سنة 1236/633 ، أي عند بداية انفراج الأزمة القائمة بسبب التخلي عن العقيدة الموحدية بمراكش. بل إن يحيى بن الناصر قد لقي حتفه على يد هؤلاء المَعْقِل بهذه النواحي في السنة المذكورة نفسها[15].

رابعا : من المحتمل أن الوضعية قد أخذت تتغير تدريجيا لفائدة القبائل المرينية ابتداء من هذه الحقبة وربما بسبب اختلاف الأيدي على المنطقة الشمالية الغربية كما قد يُفْهَم من خلال مبادرة الخليفة الرشيد عند زيارته الأولى للغرب في نفس سنة 633 حيث تم اللقاء بينه وبين «وفود بني مرين». ولقد تُوِّج هذا اللقاء بـ «إحسان كثير» وهدايا من قبل الخليفة قد تَنِمُّ عن دخول المرينيين رسميا في خدمة الدولة الموحدية ولا شك. ولعل لهذا الوضع الجديد المتميز علاقة ما ببداية نزوح المعقل في اتجاه سهل سوس عَبْر المغرب الخارجي والشروع في ربط الصِّلة هناك بأحد المتمَرّدين على العاصمة وهو يحاول التخلص داخل معسكره من قبيلة جزولة الصنهاجية، وذلك في غضون سنة 1239/636[16]. على أن هذا التحرك نحو الجنوب من قِبَل المَعْقل لم يكن اختياريا في الغالب ولم يكن له أن يتم عن طريق الإكراه دفعة واحدة. بدليل أننا نسجل حضور بعض القبائل المعقلية إلى جانب المُنْشقِّين من بني عسكر أثناء محاصرتهم لمدينة مكناسة بسبب خلاف بينهم وبين قومهم من بني مرين سنة 1241/638، أي بعد مرور سنتين اثنتين على خروج القبائل المعقلية الأولى نحو السوس وابتعادها عن جهة الغرب[17].

وهكذا، وبِغَضّ النظر عن مسلسل المجاعات الخانقة التي ترتبت عن هذه التحركات المتضاربة بالنسبة للمنطقة الشمالية كلها ومجموع المجال المغربي بوجه عام[18]، يمكن الاحتفاظ أساسا بما آل إليه الصراع المريني—الرياحي من تقدم المرينيين في اتجاه الغرب واكتساحهم لسهول الهَبْط وأزْغار وتامَسْنا. كما يمكن الاحتفاظ من جهة أخرى بما آل إليه التنافس المعقلي—المريني من إقصاء تدريجي لعرب المعقل عن مداخل السهول الغربية ورَصْد حواجز بشرية دون هذه المداخل على طول وادي ملوية ما بين بلاد الزّيز ووادي صا، وذلك إما بواسطة قبائل مرينية أو زناتية أخرى كمكناسة وبني ونْجاسَنْ وبني

يِزْنِيَانْ، وإما بواسطة قبائل حليفة كقبيلة بني وَريتانْ الصنهاجية وقبائل سُوَيْد العربية الهلالية المستقدَمة من المغرب الأوسط ابتداء من سنة 720 هجرية على عهد أبي سعيد.

وتبعا لهذا الوضع، فإن قبائل المعقل بمختلف فصائلها قد توزعت فيما بين شمالي التخوم الشرقية بمنطقة أنجاد وبلاد الواحات جنوبا ثم بلاد السوس وما وراءها بالجنوب الغربي ابتداء من منتصف القرن السابع للهجرة أو الثالث عشر للميلاد. وقد صادف هذا التَّوزُّع ظهور حركة تمرُّد بني يدر بالسوس وإقبالهم على من وُجِد هنالك من المَعْقل الأوائل فازداد بذلك توجُّه المزيد من هؤلاء العرب نحو هذه المنطقة. ولْنُشِرْ بهذا الصدد إلى أن هؤلاء المعقل لم يتخلوا بأكملهم نهائيا عن العبور نحو الغرب والشمال وإنما استأنفت بعض القبائل من بينهم تحركها في نفس هذا الاتجاه انطلاقا من بلاد القِبْلة أو بلاد الواحات عبر ممرَّات الأطلس المتوسط مع مطلع النصف الثاني للقرن الثامن الهجري أو الرابع عشر للميلاد[19].

*
* *

وبالتالي فإن المقابلة بين نموذجي التحركات الموحدية والمرينية قد تؤدي لا محالة إلى القول بتعارض النموذجين شكلا ومضمونا. ذلك أن التحركات المرينية كما رأينا تحركات قبلية برغماتية أدّت في النهاية إلى توزيع مجال المغرب الأقصى بين مجال مركزي احتفظ به المرينيون لأنفسهم وبين مجال جانبي تَمَّ التخلي عنه كليا في مرحلة أولى لفائدة المنافسين الأوائل من عرب المعقل. أما التحركات الموحدية فنجدها قد تعاملت مع نفس المجال من خلال منطق دولة تيوقراطية توسُّعية تُعتبَر في الواقع هي الأصل المحرك لهذه التحركات. ومما نتج عن التوجه الموحدي أن تلت هذه التحركاتِ المتشدِّدة إزاء الغير سياسة تقوم على التَّعْمير الفعلي بواسطة الآخر مع اللجوء إلى التَّرْحيل الجماعي لأسباب أمنية توازُنية بالدرجة الأولى.

*
* *

ما الذي نتج عن كل هذا بالنسبة للآخر والمجال وربما بالنسبة للحاكم نفسه ؟

السؤال يتضمَّن عدة جوانب لا سبيل إلى استعراضها في إطار هذا البحث المحدود. وبالتالي فإننا سوف نقتصر في معالجته على رسم خطاطة عامَّة لأبرز النتائج المجالية وأهم المُضاعفات الاجتماعية المترتبة عنها عسى أن تتَّضح بعض الآفاق التحوُّلية المرتبطة بالتحركات التي عرضنا إليها.

حول الأوضاع المجالية الجديدة

لِنُسجِّل في البداية أن لكل من سلوك الموحدين والمرينيين إزاء مجال المغرب الأقصى نقطةَ التقاء مشتركة هامَّة رغم كل الاختلافات التي سبقت الإشارة إليها. وبما أنه لا بد من تَوطين هذه النقطة ولو بإيجاز شديد، فلنقل إنها تتلخص في ذلك التطور الدقيق الذي طرأ على وضع المجال المذكور من حيث أنه لم يعد كله رهن تصرف المجموعات الساكنة الأصلية كما كان الشأن حتى أيام المرابطين وإنما أصبح لِلْحُكم المركزي المتصاعد أيام الموحدين الأوائل على الخصوص أثرٌ حاسم في توظيفه مع كل ما يتضمنه التوظيف من توزيع و تعمير و ترحيل واحتواء مؤقت أو تملّك نهائي «مشروع».

وأول ما ترتَّب عن هذا بالنسبة للفترة كلها أن خريطة الساكنة بمجال المغرب الأقصى قد تأثرت كثيرا من جراء حركات الهِجْرة وعمليات التَّهْجير التي أعقبت مباشرة قيام كلّ من الدولتين الموحدية والمرينية. ولعل من أبرز ما احتفظت به الخريطة ذاتها أن سجَّلت ظهور القبائل البدوية الهلالية ثم القبائل الرَّعَوية الزناتية بالسهول الغربية بينما توزَّعت قبائل المَعْقل العربية عبر الشريط الحِزَامي الواصل بين سهل سوس وما وراءه وبين أقصى الشمال الشرقي للبلاد. وبالتالي فإن المجال–الرِّهان المتمثل في السهول الغربية كما ذكرنا لم يعد مجرد رهان معرَّض للمطامع الْمُتبدّلة وإنما أصبح مجالا محصَّنا تحصينا بشريا رسميا منذ أن جعل منه الموحدون شبه «ثكنةٍ–إقطاع» قبل أن يقوم المرينيون بـ «إسناده» إلى بني جِلْدَتهم بغية الارتكاز عليه كقاعدة متصلة رأسا بقواعدهم البشرية الزناتية المرابطة على المداخل والممرات الجبلية كما أسلفنا.

ونظراً لما سبق أن ألمحنا إليه من ضعف اهتمام المصادر عامَّة بدقائق مثل هذه التطورات الأساسية ونتائجها بالنسبة لمختلف الجهات، فلسوف نحاول تأمُّل بعض

الشهادات «الحية» المباشرة أو شبه المباشرة التي تعكس واقع الجهات القُطْبِيَّة المعتمَدة حتى الآن، ونقصد كُلا من الجنوب وأقصى الشمال الشرقي وكذا منطقة السهول الغربية. وسوف نرى أن هذه الشهادات قد جاءت مُوَطَّنة ضمن الفترة المدروسة عبر حقب منتظمة تقع أولاها في بداية نفس هذه الفترة والثانية في منتصفها بينما تُحيل الأخيرة زمنياً على نهاية القرن السابع للهجرة أو الثالث عشر للميلاد.

لنتعرَّف على بعض مشاهد الحقبة الأولى وهي تَهُمُّ مقطعاً من الحياة الدينية–الاجتماعية بكل من سهلي دُكَّالة وتامَسْنا في نهاية القرن السادس الهجري وبداية القرن الموالي، أي مباشرة بعد استقدام القبائل الهلالية لهذه الأراضي مِن قِبَل الخلفاء الموحدين الثلاثة الأوَّلون.

المشاهدُ ثلاثةٌ، وكلُّها مشاهدُ بسيطة متناغِمة وردت ضمن ما رواه التادلي في التشوف من نُبَذ تتَّصل بظاهرة الكرامات. ولربما جاز لنا أن نَنْسَحِب هنا أمام حيوية الواقع وسلاسة الحكي :

النبذة الأولى : «سمعتُ هارون بن عبد الحليم يقول : دخل قوم من العرب أطراف بلاد دُكالة فدخل أحدهم في جنة أبي حفص فأخذ منها عنباً. فلما جعله في فيه أصابه وجعٌ كاد يقضي عليه. فجاء إلى أبي حفص فأخبره. فمسح أبو حفص على حَلْقِه فزال عنه ما كان أصابه. فقال له : ما الذي أدخلك جنتي ؟ فقال له : كنتُ آكل من جنّات أهل تامسنا فلا يصيبني شيء فظنَنْت أن جنَّتك كتلك الجنَّات... »[20].

النبذة الثانية : «وحدثني عيسى بن يعقوب قال : قال لي أبو محمد عبد الحق بن عبد الله المينوني : أتيتُ مرة من الفحص إلى أهلي ؛ فلقيت العرب في طريقي وهم يعيثون في الناس يميناً وشمالاً وأنا راكب على دابَّتي فحفظني الله منهم ولم يتعرضوا لي حتى وصلت إلى أهلي ولم أحدِّث بذلك أحدا. ثم إني زُرْتُ أبا يلْبَخْتْ، فجلست معه نتحدث إلى أن وصلته جماعة من المريدين من أهل تامسنا. فقالوا له : أردنا أن نستسقي ؛ فخرجنا إلى المسجد الفلاني فجرَّدَنا العرب. فقال لهم أبو يلبخت: أعرف رجلاً من أبناء

هسكورة اجتاز بالعرب فلم يتعرضوا له وهم يعيثون في كل جانب ؛ فتطمعون أنتم أن تستنزلوا المطر من السماء وقد عجزتم عن استرجاع أثوابكم من عند العرب ! قال أبو محمد : ما أَخْبَرْتُ بما أَخْبَرَ به عَني أحَداً من الناس»[21].

النبذة الثالثة : «وهي نبذة تحكي مشهداً يتصل بمجرَّد تلبية دعاء الحاكي أبي عمر الصنهاجي وكان قد «سأل الله تعالى أن يُقدّم» له عنده جميع مالِهِ ليجده عنده. يقول صاحب الدعاء : **«فأقمت قليلا. فجاءت سرية من العرب وأغارت على مالي وحجبني الله عنهم فلم يُبْصِروني فحملوا جميع ماشِيَتِي وأنا أُبْصِرُهم ثم فتشوا أجباح النحل فأخذوا دراهم كنتُ رفعتها في بعضها وذهبوا ...»[22].**

ما الذي يمكن الاحتفاظ به من مثل هذه الشهادات بالنسبة للعلاقة القائمة بين مختلف الأطراف ؟ بغَضّ النظر عن ظاهرة الولاية التي تستمد مادَّتها الحيوية الأولى من صلب هذه العلاقة كما سوف نرى، يمكن الاحتفاظ أساساً بالمفارقة التي ترتبط بنمط السلوك الذي اختاره كل طرف من الطرفين المتعارضين المعنيين بالموضوع. بمعنى أن هنالك نوعاً من السلوك الجائر المبْتَذل من وجهة نظر أصحابه قبل غيرهم حسب ما يبدو من جهة ؛ وهنالك التسليم بالأمر الواقع من جهة أخرى ويتقدَّم كما لو أنه نوع من إدماج الجَوْر ضمن منظومة التَّوَكُّل وإمْهال الغاصب المعتدي مِن قِبَل الطرف المتضرِّر. ولابأس من التذكير هنا بأن الظرفية العامة الرسمية المؤطرة لللمفارقة المذكورة بمختلف لُوَيْناتها قد قُدّمَت حتى الآن عبر مجمل المصادر الروائية على أنها ظرفية اسْتِتْباب وأمْن واستقرار وتحكم في الأوضاع. وبالتالي، فقد يجوز لنا انطلاقاً من مثل هذه المقابلة أن نتساءل عن موقع الطَّرَف المتضرِّر بالذات من مجموع هذه الظرفية المريحة رسمياً على الأقل.

هذا فيما يتعلق بما يمكن أن نسميه ب «عيِّنة» السهول الغربية. وهنالك «عيِّنة» أخرى بعيدة مكانيا وزمنيا عن سابقتها وتَهُم منطقة الريف إبَّان دخولها من قِبَلِ الغزاة من عرب المعقل في بداية القرن السابع للهجرة أو الثالث عشر للميلاد كما رأينا. أما الآثار التي تتصل ببعض ما واكب هذا الدخول فقليلة هي الأخرى وتتقدَّم في شكل إشارات تندرج ضمن ما أورده البادسي في المقصد الشريف :

الإشارة الأولى : وهي عبارة عن إشارة مأخوذة من ترجمة الحاج إبراهيم بن عيسى بن داوود، من صلحاء الرِّيف، وقد «أتاه يوماً جماعة من العرب المتغلِّبين على الرّيف حين ضعف أمر الموحدين فيه. وكان أولئك العرب يجبرون الناس على مغرم يأخذونه، فطلبوا قبيل بني وَرْتَرْد بالمغرم فأبوا عليهم وتمنَّعوا ببعض معاقلهم بساحل البحر، فقال العرب للحاج ابراهيم : حاول الصلح بيننا وبينهم، فقال : اللهم لا ترده من عندهم. قال : فتوجه إلى جماعة بني ورترد وعرَّفهم بما طلبه العرب منهم، فأبوا من الانقياد إليهم . . .[23]».

الإشارة الثانية : ويمكن اعتبار ما ورد فيها تأكيداً توضيحيا لما ورد في الإشارة الأولى وإن كانت مُقْتَبَسة من ترجمة أخرى كتبت للتعريف بالشيخ علي بن محمد المراكشي. يقول صاحب المقصد : «وحدثني عبد الله بن العربي البادسي، قال : كانت العرب قد تغلبت على الريف عام خمسة وثلاثين، فخفنا منهم ، فارتحل جميع أهل بادس بأموالهم وأمتعتهم إلى الجزيرة التي في مرسى بادس، وكنا نحترس الديار بالأسلحة رجالا لا غير. قال : فإذا جاءت العرب غدوة انبسطوا في الوادي وانقطع الناس في العدوتين، عدوة الصف وعدوة الركيبة، لا يقدر مَن يدخل الوادي مِن أجل العرب. قال : وكنت أرى الشيخ علي المراكشي جائياً وذاهباً من إحدى العدوتين إلى الأخرى يمشي وسط العرب وعليه ثيابه، فما ناله من أحد منهم شيء، فعلمت بعد ذلك أنه كان محجوبا عنهم[24]».

الإشارة الثالثة : وهي تحيل على فِراسة الشيخ أبي يعقوب بن الشقّاف، من أهل قصر كتامة، ونصها كالآتي : «وحضر مجلسَهُ ليلة أخرى جماعة يذكرون الله تعالى، وفيهم رجل مُنْشِد. . . عليه جبة قرمز ، فرفع رأسه وقال : ألم أقل لك جرِّدْ تلك الجبَّة عنك فلم تفعل ؟ فأخرجه الحاضرون وبُحِثَ عن الجبَّة فكانت مغصوبة، غصبها بعض العرب المتغلبين على حوز بادس لبعض التجار قطع الطريق عليهم وسلبهم[25]».

وأيّاً كان نوع الشبه بين ما نقرأه حول وَضْع الرِّيف ووَضْع بلاد دُكَالة وتامَسْنا عبر

مختلف النُّبَذ والإشارات، فلعل ممَّا يلفت النظر بالدرجة الأولى أن هنالك فرقا أساسيا بين موقفي سكان كل من المنطقتين. ذلك أن رُدود أهل الريف قد امتازت بنوع من الرفض «الإيجابي» الصريح لأسلوب الغَصْب والاعتداء الذي أخذ به العرب الطارئون هنا وهناك بالجبل والسهل حسبما يتبيَّن. وإذا كان من شأن هذه الرُّدود أن تُردَّ كما جاء في النصوص نفسها إلى خصوصية الجبل أو المجال بوجه عام وكذا إلى ما يمكن أن يكون قد ترتب عن هذه الخصوصية من مَنَاعة وتحصين بالنسبة للأهالي، فالملاحظ أيضا أن موقف الولي هنا موقف يبدو غير مماثل لموقف الولي بالجنوب مِنْ حيثُ أنه أقرب إلى الشَّجْب العلَنِي والمواجهة الفعلية وأبعدُ ما يكون بالتالي عن مجرد التَّحَمُّل والاكتفاء بالمقاومة عن طريق التربية والاستنكار.

ويبقى أن نقف عند «العيِّنة» الأخيرة التي تُقدِّم مقطعا مجاليا مركَّبا يبتدئ بجنوب سهل سوس وما جاوره من بلاد القِبْلة ليَنْثَنِيَ بالتخوم الشمالية–الشرقية قبل أن يَخْتِم في اتجاه آخر معاكس ببعض المحطَّات الداخلية الوسطى أو الساحلية. أما الإطار الزمني فمحدَّد فيما بين أواخر سنة 1289/686 وأواخر سنة 1291/690. وأما المادة فمجموعة لَوَحات وصفية مأخوذة كلها من نص الرحلة الحجازية التي حرَّرها العبدري الحيحي في نفس الفترة بالذات :

اللوحة الأولى : تصف هذه اللوحة أوضاع أعالي المنطقة السوسية وما وراءها من بلاد الواحات بالجنوب والجنوب–الشرقي للبلاد، وذلك عند بداية استِتْباب أمر المرينيين بها، أي غداة تراجع حركة التمرُّد التي سبق ذكرها بمناسبة استعانة زعمائها من بني يدَّر بعرب المعقل والاستجاشة بهم على الخلافة الموحدية ابتداء من منتصف القرن السابع الهجري. ينطلق الوصف نفسه من «بلد آنسا جبره الله...» فيتم التعريف به على أنه «بلد منفسح منشرح في بسيط مليح، طيب التربة، يغل كثيرا وبه ماء جار كثير ونخل وبساتين. **وهو آخر بلاد السوس من أعلاه ، مُتَّصل بالجبل، مشرف على السوس»**. ويستحسن أن نضيف بالمناسبة أن «البلد» المعني هنا يقع في قلب مجال تحرك بني يدَّر وحلفائهم بعد أن كان له دور استراتيجي مشهود له على مستوى المنطقة كلها منذ أن قام أمر الموحدين على الأقل[26]. وبما أن هذا

الدور نفسه راجع للموقع الجغرافي من حيث هو أولا. فقد كان من الطبيعي أن يشتد الصراع من أجل التحكم فيه ويذهب العمران ضحية فِتَن متقلِّبَة دامت زهاء نصف قرن. ولعل من شأن هذه المعطيات أن تسمح بترجمة بعض «المُكَنَّيَات» الواردة في بقية الوصف عندما يذكر العبدري في حق هذا المركز الستراتيجي-التجاري-الديني أنه «كان في ما مضى مدينة كبيرة فتوالت عليها الخطوب المجتاحة ونزول الأقدار المتاحة، حتى صارت رؤيتها قذى في المقلتين، وعادت بعاديات الزمان أثرا بعد عين، فليس بها إلا رسوم حائلة، وطلول مائلة، خلت من كل قار ومقرو عليه، وقاصد ومقصود إليه. بيد أن بها صبابة من أهل الدين وفرقة بأخلاق أهل الخير تدين، على ما يتناولهم من أيدي المعتدين، ويتداولهم من الولاة المفسدين...»[27].

ويُذيِّل المؤلف هذه اللوحة برسم ما آلت إليه الأوضاع بحصون الواحات التي مرَّ منها بعد هبوطه من الجبل فيكتب عن «بلاد القبلة أنها بلاد مات فيها العلم وذكره حتى صارت العادة في أكثرها أنهم لا يتخذون لأولادهم مؤدِّبا ولا تسمع في مساجدهم تلاوة...، ولكنهم في الغاية من حسن الظن بأهل الدين وقوة الرجاء فيهم. وهم أهل ذِمَم واحترام، وحماية للجار وإيواء للغريب...» وبذلك يكون الوضع قد جمع بين حسن طينة السكان وفساد الوقت. وقد شفع العبدري هذا التناقض على مستوى المعنويات بتناقض مماثل على مستوى الماديات فسجَّل في حقّ أهل هذه المنطقة أن «أكثر بلادهم حصون مجموعة وأنهار جارية، وقلّ ما تخلو من الحروب والفتن، وربما تحارب أهل الموضع الواحد فيتقاتلون عامة النهار فإذا آووْا إلى بيوتهم لا يهيج أحد منهم صاحبه»، ممَّا يؤشِّر لغياب كل ما من شأنه أن يؤمِّن الاحتكام ويضمن الهدوء لمختلف الأطراف.

اللوحة الثانية : تتقدَّم هذه اللوحة في صورتها العامة لِضَق اللوحة الأولى وتتعلق بالمفازة «التي في طريق تلمسان»، أي المفازة المعروفة بصحراء «أنْجاد» بالجيم المعقودة، وكانت آنئذ مجال نفوذ عرب المعقل وذوي عبيد الله منهم خاصة. ويصف المؤلف هذه المفازة فيسجل أنه ورفاقَه قد وجدوا «طريقها مخوفا لا تسلكه الجموع الوافرة إلا على حذر واستعداد» قبل أن يضيف مباشرة أن «تلك المفازة مع قربها من أضرّ بقاع الأرض على المسافرين لأن

المجاورين لها من أوضع خلق الله وأشدهم إذاية، لايسلم منهم صالح ولا طالح، ولايمكن أن يجوز عليهم إلا مُسْتَعُد يتفادَوْن من شره. وطلائعهم أبدا على مرقب لا يخلو منها البتَّة، أطلع الله عليهم من الآفات ما يسحتهم جميعا أصلا وفرعا، ويقطع دابرهم إفرادا وتثنية وجمعا ...»[28].

وبما أنه لم يكن مع كل هذا للعبدري مِنْ محيد عن شقّ طريق العودة عبر هذه المفازة نفسها بمجرد خروجه من تلمسان، فقد أعاد الكرَّة من جهته على مستوى التصوير ففصَّل في آخر الرِّحلة ما سبق له أن أجمله. وهكذا فقد ذكر أن هذه المفازة مقطعة موحشة لا تخلو من قطاع الطريق البتة. وهم بها أشد خلق الله ضررا وأكثرهم جرأة وأقلهم حياء ومروءة. لا يستقلُّون القليل، ولا يعفون عن ابن السبيل. ليس في أصناف القطاع أخس منهم نفوسا، ولا أكثر منهم إقداما على كل صالح وطالح، لا ينبغي لمسلم أن يُغرِّر بلقائهم ...»[29].

اللوحة الثالثة : وتصف باقتضاب شديد طريق العودة بعد اجتياز المفازة أعلاه. لقد انطلق المؤلف مع القافلة التي انضم إليها بوجدة فتوجَّه وِجْهَتها وصار صوب تازة ففاس فمكناسة فأزمور فآسفي. ومع أن القواعد الوسطى الثلاث لم تستوقف صاحب الرحلة في شيء، إلا أن مُدُن وجدة وأزمور وآسفي قد حظيت بإشارات تعكس ما اعتبره المؤلف طابعها المميز ولا شك . وهكذا تمت الإشارة إلى أن مدينة وجدة مدينتان بينهما مسافة قليلة في بسيط مستور. وقد دثرتا فلم يبق منهما إلا رسوم حائلة وأطلال مائلة. والقديمة أشدهما دثورا، وبهما عمارة قليلة ...»[30]. أما مدينة أزمور فمُعرَّفة من خلال «قبور السادة المدفونين بها من الصالحين نفعنا الله بهم»، وأما مدينة آسفي، فالملاحظ أن صاحب الرحلة لم يكلف نفسه عناء التنصيص على اسمها وإنما اكتفى بالتَّكْنِية عنها بقوله : وختمت الرحلة بزيارة قبر شيخ الصالحين وقدوتهم، شرف المغرب الأقصى وفخره، وشمس زمانه وبدره، أبي محمد صالح بن ينصار، أفاض الله علينا من بركاته، ومدَّ بصائرنا بنور يستمد من مشكاته... »[31].

وهكذا نرى أن التحركات البشرية التي تَمَّ استعراضها قد خلَّفت أوضاعا متقاربة عبر

مجمل أنحاء الرقعة المجالية المحدَّدة. ولربما جاز لنا أن نعتبر أن هذه الأوضاع قد أفرزت بدورها نوعا من الإحساس الجماعي بعدم مواكبة السلطة المركزية القائمة –أيا كان مركزها– لعمق تطورات المسلسل قبل غيابها الكلّي في الحلقة الأخيرة منه. ولعل صاحب الرحلة المعتَمَدة هنا قد انطلق من هذا الإحساس نفسه عندما قرّر تقييد «ما قام عليه بالمشاهدة شاهد البرهان، من غير تَوْرية ولا تلويح، ولاتقبيح حسن ولا تحسين قبيح» فكتب موضِّحا : «**وقد صار الملك الذي هو نظام الأمور، وصلاح الخاصّة والجمهور، في أكثر الأرض منقوض الدَّعائم، مصدَّع القوائم، يدّعيه كل غَويّ...، رضوا باسم الملك وإن فاتهم معناه، وادَّعَوْا وما لهم منه إلا أسماؤه وكناه، لا يأمن بهم طريق، ولا يستنقذ بهم غريق...، ولايُنصَفُ بهم مظلوم، ولايُقْرَع بأسيافهم ظلوم...**». ومع أن طابع التعميم الذي عمد إليه العبدري لايتنافى في حدٍّ ذاته مع التخصيص المُضْمَر المتّصِل حتماً بواقع مسقط الرأس طِبْقَ ما يقتضيه السياق والمنطق وطبيعة موضوع الرِّحلة كنوع أدبي، إلا أن المثال الذي استشهد به المؤلف لِتَوّه كافٍ للكشف عن هذه الازدواجية ورفع كل لُبْس. خصوصاً وأن هذا المثال نفسه قد قُدّم في شكل تساؤل توضيحي بليغ نَصُّه كالآتي : «أو ليس من الأمر الخارج عن كلٍّ قياس أن المسافر **عندما يخرج من مدينة فاس لا يزال إلى الإسكندرية في خوض ظلماء وخبط عشواء، لا يأمن على ماله ولا على نفسه، ولا يؤَمِّل راحة في غده إذ لم يرها في يومه وأمسه، يروح ويغدو ولحمه على وَضَم، يُظلَم ويُجفَى ويُهتَضَم، تَتعاطاه الأيدي الغاشمة، وتَتَهاداه الأكُف الظالمة ؟ ...**»[32].

وإذا كان لهذا التساؤل مدلولُه الميداني الملتصق بواقع منطقة الشمال-الشرقي بُعَيْدَ استيلاء المرينيين رسميا على السلطة بالمغرب، فالواقع أنه يتجاوز في العمق هذه الظرفية الخاصة التي وُضِع فيها ليختزل مجمل نتائج الخَلْخَلة الطويلة المتموِّجة النّاجمة عن تعاقب تحركات بشرية متباينة أدَّت كلها إلى تآكُل الحُكْم القائم بمختلف عيِّناته ثم إلى اهتزاز «نظام الأمور». وبالتالي، أفلا يمكن أن نعتمده للتساؤل من جهتنا عن نوعية الرُّدود المجتمعية وتوجُّهها الغالب وكذا عن أبرز تطوراتها أمام ما اعتبره العبدري في النهاية تصدُّعا للملك وذهابا لمعناه ؟

حول التوجه الغالب وأبرز التطورات

بالرجوع إلى مختلف التحرُّكات البشرية المعنية هنا وما أدت إليه من «تجاوزات» متنوعة عبر مختلف المناطق المُحْتَكَّة بها أو الخاضعة لسلطتها، يمكن أن نتساءل في البدء عمَّا يمكن أن يكون قد خلَّفه التحرُّك الموحدي قبل غيره من رُدود جماعية بمجال المغرب الأقصى. خصوصا وأن الرُّدود القاعدية قد تصمد عادة أكثر ممَّا تصمد بعض مُسبِّباتها وربما تقنَّعت فيما بعدُ بقِناع بعض لَواحِقها لتخترق العصور.

وأول ما يلاحظ بالنسبة لهذا التحرك الأول أن سيطرته على الساحة السياسية - العسكرية لم تُفْض دائما ألى ما كان يصبو إليه القادة المؤسِّسون من سيطرة روحية أو نفوذ معنوي عبراعتناق العقيدة الموحدية وتَبنِّيها على مستوى الشعور التِّلقائي والإحساس. ومهما يكن من تأثر هذا الوضع الأبتر بما سبق الإلماح إليه من ارتباط الدعوة لدى الموحدين الأوائل بسلوك الغزو الأهْوج المتطرِّف القائم على الميز العَقَدي والتكفير والتَّعصُّب، فالملاحظ من جهة أخرى أن هنالك نوعا من التحفّظ الحميم المبكر إزاء الدعوة-الأساس داخل البلاط الموحدي نفسه. والملاحظ أيضا أن هذا التحفظ قد بدأ مهموسا متكتِّما مع يعقوب المنصور إبَّان فترة «الأوج» ثم لم يلبث أن كشف عن عمق الواقع المعقّد الذي أفرزه بمجرَّد ما تَفتَّقت الأزمة وتبرأً ابنه المامون رسمياً من عقيدة مصامدة الجبل الموحدين كما أسلفنا[33].

وبغَضِّ النظر عن تفاصيل هذه القضية وما أحاط بها من تقلُّبات، يمكن الاحتفاظ في شأن الرواية المعاصرة المتصلة بها أنها قد اهتمَّت بموقف الحكام المتطوِّر من عقيدتهم الرسمية دون أن تلتفت إلى موقف المحكومين من نفس هذه العقيدة وأهلها. وأغرب ما في الأمر أن هذا الموقف الأخير قد بدا واضحاً وضوح المواقف التلقائية في المصادر المنقبية منذ الأوائل. بمعنى أننا نجده هنا مقترِناً اقتراناً ضمنياً بالإعراض عن كلّ من الطرَف الحاكم ومجموع الجهاز العقدي الذي يستند إليه. ومعلوم أن الجمع في الإعراض بين هذا وذاك قد جاء نتيجة للتَّضامن العُضوي القائم بين الطرفين على مستوى الفِعْل والواقع الميداني. ولربما ازداد انصراف ِالعامَّة عن نظرية «التوحيد» بسبب ما اتّسمت به من «تِقْنية كلامية» مُمْتنِعة وانتقائية نظرية في غير مُتَناول الجميع[34]. والظاهر أن كلا من

هذين العنصرين قد لَعِبَ لغير صالح العقيدة الموحدية ولفائدة حركة «الولاية» التي ارتبط انتشارها زمنيا بقيام الحكم الموحدي بالذات.

وإذا كان لهذه الحركة التي تزعَّمها الأولياء الصوفية جذورها القديمة التي قد تفسِّر حضورها منذ بداية الفترة التي تهمنا عبر أواسط المغرب وأقصى الشمال كما يؤخذ من كتاب المقصد الشريف الآنف الذكر للبادسي وكتاب المستفاد في مناقب العُبَّاد بمدينة فاس وما يليها من البلاد لمحمد بن قاسم التميمي، فالملاحظ من خلال كتاب التشوف إلى رجال التصوف للتادلي أنها قد ازدهرت جنوبي أم الربيع بالدرجة الأولى فانتشرت مع قيام الحكم الموحدي ببلاد دُكَّالة وهَسْكورة وحاحة والسُّوس وبلاد الدير وتادلا ودرعة، وكلُّها من أقرب مناطق المغرب الأقصى لجبل المصامدة الموحدين. وإذا ما راعينا أن الأهالي بأغلب هذه المناطق معدودون من نفس الأصل المصمودي الذي ينحدرمنه معظم قبائل الغزاة، فقد يكون من المحتمل جدا أن «الولاية» قد دشَّنَتْ هنا منعطفا تحوُّليا في تاريخ المجتمع المغربي بأن حاولت أن تلعب دور العنصر «المواكِب» لِلُّحْمة العصبية إن لم نقل دور العنصر «المواكب—المعوِّض» أحيانا عن هذه اللُّحمة التي لم تتدخَّل بتاتاً لحقن دماء «إخوة» الأراضي الواطئة إبان فترة الغزو ولم يُحسَبْ لها أي حساب بعدها.

وبالتالي فأن تَمَرْكُز ظاهرة الولاية بالأنحاء الجنوبية ابتداء من الحِقبة المشار إليها قد يُفَسَّر مجالياً بتقاليد المنطقة الرَّاسِخة المُتجسِّدة خاصَّة في بعض الرُّبُط التاريخية كرباط ماسَّة ورباطي شاكر وكوْز بالكاف المعقودة[35]. إلاأنه من غير المُسْتبْعَد ردُّه ظرفيا إلى نوع من الرَّغبة في مواجهة الجهاز المُتَغَلِّب وانتحال نحلة أخرى متميِّزة عن عقيدته المؤسِّسة التي جرت العادة بالجمع تلقائيا بينها وبين عنصر المصامدة أجمعين[36]. ومع أن «الولاية» تقف و«المهدوية» على طرفي نقيض من الناحية النظرية الصرف، إلا أن مما لا شك فيه أن الإقبال الشعبي الواسع عليها مرتبط بجانبها العملي قبل غيره وأنه قد يُفَسَّر إلى حد بعيد بالتَّعارُض السافر بين كل من سلوك المتغلِّب الموحِّدي القائم على المَيْز والإكراه والتَّشدُّد وبين سلوك أهل «الولاية» المتمثل في الإصغاء والتَّحمُّل والانتصار للمُستَضعَف ومحاولة الحدِّ من التَّجاوزات أيا كان مصدرها. ونظرا لاندماج الولي هيكليا في الواقع القبلي الإقليمي لمجتمعه الخاص، فالراجح أن سلوكه المُمَيِّز قد أدَّى به إلى تجسيد نموذج «الحكَم—البديل» ضِمْن مناخ يغلب عليه افتقاد الحكَم سواء بالنسبة للخصومات

المجتمعية العادية أو بالقياس للنزاعات الجماعية الشّاذّة كما لاحظ العبدري ببلاد القِبْلة. ومعلوم أن التجاوزات المتنوعة الصادرة عن قبائل البدو «الخادِمة» وغيرها من القبائل المتنطِّعة أو الجهات المُسْظِلَّة بظِلّ الدَّولة لأبلغ شاهد على عموم البلوى كما انعكس ذلك في الخِطاب المنقبي بوجه عام.

كيف تطوَّر هذا التَّوجه الصوفي المُكتسِح للسَّاحة مع تغيُّر الأوضاع وظهور التحرُّكات المرينية والمعْقِلية على الخصوص ؟ ربما كان من أقرب السُّبُل إلى توضيح أهم معطيات هذا التطور أن نَعدِل عن التَّعامل معها دفعة واحدة في مثل هذا الحيِّز المحدود فنحاول استعراضها مستقلة عن بعضها مع التَّشديد على تداخلها الفِعلي الحميم على أرض الواقع. وبذلك تتقدَّم هذه المعطيات كالآتي :

أولا : إستناداً إلى الْتِفاف العامَّة حول ظاهرة الولاية طوال النصف الثاني من القرن الثاني عشر للميلاد، يمكن أن نربط نوعا ما بين هذا الالتفاف وبين بوادِر الاستعداد «الخليفي» للتَّحفُّظ إزاء «المهدوية» كما أفصحت عن نفسها لأول مرة على لسان الخليفة المنصور على الأقل. وإذا كان لاعتزاز مصامدة الجبل بعصبية «المهدي» دورُه الفاعل في إذكاء هذا التّحفُّظ والدَّفْع به إلى حدّ الرَّفض الذي ذهب إليه الخليفة المامون، فلْنُسجِّل بهذه المناسبة ما اتَّسمت به البذور الانفصامية لدى الجهاز الثُّنائي الحاكِم من أقدمية ورسوخ مع التنصيص على أن بداية الإفصاح عن التَّشكُّك في مهدوية «المهدي» مِنْ قِبَل المنصور قد اقترنت زمنيا بتصاعُد المدّ الصوفي بالمنطقة كلها كما اقترنت بمحاولة توظيف هذا المدّ عسكريا وسياسيا على يدِ نفس الخليفة[37].

ثانيا : يلاحظ منذ البداية أن التوجُّه الصوفي الغالب لم يقف عند مستوى العامَّة أو الأرياف وإنما اجتذب كثيرا من فقهاء الحواضر وطلبة العِلم بها مِمَّن شدُّوا الرِّحال أحيانا إلى مَقَر إقامة بعض كبار الأولياء بعيداً عن العواصم منذ الأوائل زَمَن الشيخ أبي يعزى يَلَنُّور المتوفى أواخر سنة 1177/572. وتجدر الإشارة إلى أن فضلَ تتبُّع مناقب الأولياء على العموم وجمعِها بُغْية التعريف بهم وبمَنْ تَبعهم يؤول بالدرجة الأولى إلى الحِرْص الشخصي لهؤلاء

«السَّالِكِين» من فقهاء المُدُن وخاصَّتها كما هو الشأن بالنِّسبة لكل من التادلي والتَّميمي وأبي العباس العزفي والبادسي وابن تجِلات وابن قنفُذ فيما بعد مثلا. كما يجب أن نسجِّل بالنسبة لهذا الموقف «العالِم» بالذات أنه يُعَدُّ مظهرا من المظاهر الأساسية للمنعطف التحَوُّلِي الآنف الذكر وشيكا. ذلك أن «الولاية» التي رُبَّما تقدَّمت لدى جمهور مصامدة السهل وغيرهم من عامَّة الأهالي كمُتَنفَّس ديني وأداة «مواكبَة» لمرجع العصبية التقليدية قد تكون استمالت الخواصَّ من رجال العلم والفقهاء استِمالة مؤكدة بسَبَبِ فعالية دورها المُسْتَحْدَث هذا وباعتبار موقفها المبدئي من «المهدوية» وانتسابها إلى التَّصوُّف السني الآخِذ بتعاليم مؤلف «الإحياء» كما انتشرت بِخاصَّة على يد تلميذه أبي بكر بن العربي المعافري الإشبيلي المتوفى بظاهر فاس بعد أن كان قد حُبِس بمراكش، وذلك في أواخر سنة 543/1148 وأثناء الحملة الموحدية التي مهَّدت لتنظيم عملية «الاعتراف»[38].

وعليه، فلعل أقلَّ ما يجوز أن ننعت به الظاهرة التي نحن بصددها الآن أنها قد اكتسبت وزنا اجتماعيا—دينيا مُتَصاعِدا يُحْسَب له حسابه منذ وقت باكر رغم صمت الرواية الرسمية. ومما لا شك فيه أن الإقبال المتزايد عليها قد تأثر بالتصاقها بالواقع وتمركُزها بمجال الرُّبُط القديمة من بلاد المصامدة كما ارتبط بسلوك روادها واعتدالهم وتوجُّههم للوجْدان الجماعي المُتَحفِّظ إزاء المنظومة الموحدية الحاكمة. أما تجاوُبها مع زُمْرة الفقهاء مِمَّن ظلَّ على وفائه للمذهب المالكي المُضْطهَد حتى أواخر القرن الثاني عشر للميلاد على الأقل[39]، فلربما اعتُبر أساسا لمسلسل الاندماج المحرِّك لكل من «المذهب» و«الطَّريقة» ابتداء ممَّا يُعرَف عادة بالعصر المريني.

ثالثا : بجانب هذا التطور الأفقِي الذي سجَّلته تجربة «الولاية» عموما بصفة تكاد تكون آلية في اتجاه المدن والخواص، هنالك تطور آخر عمودي بطيء لم تتَصدَّر نتائجه إلا في منتصف القرن الرابع عشر للميلاد فيما وصلنا إذ نجد بنية الطَّوائف قد انتشرت آنئذ بالأنحاء الجنوبية كما عُرِّفت من قبل. وبما أن التَّصدُّر لا يعدو أن يكون نِسْبِيا في حد ذاته، فالغالب أن نواة البنية

«الطائفية» المُسْتَحْدَثة قد نَمَت ابتداء من منتصف القرن الثالث عشر للميلاد بعد أن كانت قد ظهرت على يد أبي محمد صالح حسب ما سبق أن بيَّنّاه في غير هذا المكان وقبل وفاته بالطبع برباط آسفي سنة 1234/631[40]. ومِمَّا قد يدعم هذا المنحى أن آخر مشايخ الأولياء مِمَّن تنتسب إليهم أمهات الطوائف رَجْلان عاشا و«ظهرا» في النصف الأخير من نفس القرن[41]. ولعل مِمَّا يُؤَيِّد قِراءتنا أيضا أن هذه الطَّوائف عند بروزها في منتصف القرن المُوَالي سوف تتقدَّم في شكل مؤسسات مُتَأقْلِمَة ذات كيان مُتميِّز وعلاقات مُحدَّدة ومواسم وطقوس. بل إن ما سبق أن أوردناه مِمَّا كتبه العبدري في نهاية القرن الثالث عشر حول خَتْمِه رحلتَه الحجازية «بزيارة قبر شيخ الصالحين وقدوتهم شرف المغرب الأقصى» أبي محمد صالح المذكور قبلَه لَيُعَدُّ إشارة واضحة إلى تأثر المؤلف بتعاليم هذا الشيخ إن لم يكن علامة على انتمائه إلى طائفته المعروفة بطائفة الماجَرِيِّين أو إلى طائفته الكبرى المشهورة بطائفة الحُجَّاج على الأرجح.

ويجب أن نسجِّل بهذه المناسبة ما اتَّسمت به مرجعية هذه الطوائف من تنوُّع على مستوى التسمية الخاصة بكل منها. ذلك أننا نلاحظ فعلا أن هذه المرجعية قد تعتمد شعيرة دينية كما هو الشأن بالنسبة لهذه الطائفة الأخيرة التي انتظمت حول قضية تأمين سُبُل الحجيج إلى البقاع المقدسة عن طريق البَر. ونفس المرجعية قد تُحيلُ على اسم أحد رموز «الولاية» الأوائل كما نجده في تسمية الشُّعَيْبِيِّين «طائفة أبي شُعَيْب آزمور» ولربما أحالت على موقع من المواقع كما فعلت بالنسبة للغُماتِيِّين «طائفة الشيخ الولي الشهيد أبي زيد عبد الرحمان الهزميري». ومع هذا فإننا نلاحظ أن أغلبية الطَّوائف المعروفة قد مالت مع مرجعية القبيل فكان هنالك طائفة الماجَرِيِّين الآنفة الذكر و«منهم الدُّكَّاليُّون» ثم طائفة الصِّنْهاجِيِّين وطائفة الحاحِيِّين وطائفة الهزميريِّين وإن كانت هذه الأخيرة قد اشتهرت باسم الغُماتِيِّين الوارد قبله[42].

تُرَى كيف يمكن أن يُفَسَّر تغلُّب ما أسميناه بمرجعية القبيل ؟ هل يمكن أن نرى في تفضيل هذه المرجعية نوعا من التَّشَبُّث الإرادي بمرجعية اللحمة العصبية التقليدية ؟ أم تُراه يُلْمِح على العكس من هذا إلى تكَيُّف هذه المرجعية الأخيرة نفسها وسَعْيها إلى التَّلَوُّن بلَوْن «الولاية» بغية الخروج من طور «التوحُّش» والتّلقائية إلى طور «الاسْتِهداف الديني»

المؤهَّل لإصلاح ما أفسدته تجاوُزات العصبيات المُحرّكة حتى الآن ؟ الواقع أن مُجمَل التطورات اللاحقة قد تُرشِّح تساكن التّوجُّهين لأمَد غير قصير مع إفساحهما المجال لتَزعُّم «القداسة» إما على يد الصُّوفية والأشراف معاً وإما على يد الصوفية ثمّ الأشراف. ولا بأس من أن نضيف بالنسبة لمختلف المُكوّنات البشرية لهذا العنصر الأخير أنها لم تكتمِل بمجال المغرب الأقصى إلا عندما استقرَّ كل من شرفاء درعة السعديِّين وشرفاء سجلماسة العلويِّين ببلاد القبلة أواخر الفترة التي نتحدَّث عنها وبتَزامُن مع تَوَزُّع قبائل المعقل عبرَ أرجاء هذه المنطقة وما جاورها. ويبقى أن نُشير إلى أن بقية المكوّنات المجتمعية الفاعلة الأخرى قد أخذت الآن مكانها من الخريطة الناتجة عن الخَلْخَلَة التي انطلقنا منها فنزلت القبائل المرينية في النِّهاية بمواقع السهول الغربية وهضاب مغرب الشمال الشرقي كما اعتمد التَّصَوُّف الشعبي مجمل تطوُّراته الأفقية والعمودية ليزداد التحاما بفئة «رجال المذهب» في انتظار بروز فئة الأشراف.

*
* *

وهكذا تكون التحرُّكات البشرية بمجال المغرب الأقصى قد جعلت من الفترة ما بين منتصف القرن الثاني عشر ونهاية القرن الثالث عشر للميلاد فترة إرْهاصات متماسكة وتحوُّل بطيء مُسْتَتِر. لقد اتضح عند نهاية هذه الفترة فيما نتمنى أن الوضع المُجتَمعي العام بها غيرُ الوضع في بدايتها وأن هنالك مُعطيات جديدة حُبْلى قد تَمَخَّضت عن نتائج مجمل التحرُّكات ثم تقدّمت نحو المَشارف. وبذلك تكون هذه المعطيات قد أعلنت من بعيد عما سوف يعرفه «المغرب الحديث» ممَّا اعتُبِر «تبدُّلا طارئا» على مستوى الصِّيَغ الحاكمة والقوالب الجماعية المحرِّكة والرموز. وبالتالي فإن لهذا «التبدُّل» ممهدات تمتد جذورها نحو التحركات البشرية التي استوقفتنا لتَنْصهر في ما «تَراكَم» على إثْرها من مضاعفات تحوُّلية كان لها أبلغ الأثر في ابتكار صيغ تنظيمية تعتمد التربية السلوكية والوجدان.

ما قصدنا إليه عند محاولة استجلاء قضية التحرُّكات المنوَّه بها أن نعمل على البدء بالبِداية. خصوصا وأن هذه البداية قد فُصِلت بحكم التَّواتر عن الباقي فلم تكد تُسْتَحْضر إلا جزئيا ومن بعيد بصدد ما ترتَّب عنها. كان لابد إذن من تحديد «هُوِيَة» كل تحرُّك قبل تَتَبُّع آثاره عبر الغير والواقع والمجال. ولقد بدا واضحا أن لكل تحرك هَزَّة أو مجموعة

هزات وأن كل هذه الهزات قد أدت على التّوالي إلى تعميق الخَلْخَلَة المجتمعية الموازية للمسلسل كله. ويبدو أن هذا المسلسل التَّحْتِي الرَّافد قد مهّد منذ الحلقة الموحدية الأولى لظهور مرجِع–بديل تمثَّل عبر السلوك والممارسة في نموذج الولاية والتحام الولي بالجماعة عمليا ووجدانيا وهيكليا كذلك. ثم كان أن تطورت ظاهرة الولاية من جهتها بتطور المسلسل الرَّافد فاتسعت رقعة نفوذها وأصبحت تمثل «الورقة» الدينية–الشعبية الأولى عند نهاية الفترة المُعْتَمَدة حسبما يبدو.

هل يصِحُّ انطلاقا من بعض تجلِّيات هذه الظاهرة أن نُهَمِّش كل ما خلاها أو نتخطّى المسافات فنقْتَلِع الظاهرة نفسها من مجموع المركَّب المحيط ونَخْتَزِل العصر كله في لفظ جذاب غير جامع لنجعل منه عصر «تصوُّف» أو عصر «إيمان» مثلا ؟ من المسلم به اليوم أن لكل واقع لُحْمَة تقضي بتضامن مختلف مكوِّناته المادية والروحية وانصهارها في بوتقة ثقافية فريدة مُركَّبة في نفس الآن. وأقصى ما نتمناه من جهتنا أن نكون قد أسهمنا في التَّحْسيس المُوَثَّق بتضامن واقع الفترة المدروسة هنا وتَسلْسُل أبرز حلقاتها المُعَبِّرة المنْصَهِرة في بعضها البعض. أما فيما عدا هذا، فالمعوَّل عليه أن يكون هذا العمل المتواضع قد ساعد على لَفْت النَّظر إلى خصوصية بعض المواقف الجماعية إزاء الرَّمْز الفاعل وإزاء الظرفية الخاصة المُتَغيِّرة بالطبع. وكل ما نأمل في الختم أن تحظى بعض هذه الجوانب بما قد يُسْتَحَبُّ من الاهتمام عسى أن تُعْتَمَد استقبالا عند تدقيق الميكانيزمات المؤدية إلى إنتاج كلٍّ من الحُكْم والمعارضة بمجال المغرب الأقصى الوسيط[43].

الهوامش

(1) سبق أن وقفنا عند جوانب مختلفة من هذه النقطة في مقالين اثنين منشورين ؛ أنظر : محمد القبلي، ملاحظات حول التجارب الوحدوية الوسيطية ببلاد المغرب الكبير، ضمن مجموعة أبحاث بعنوان : **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، الرباط، توبقال، 1987، ص 7–20، خاصة 9– 12 وأيضا : Mohammed Kably, " Espace et pouvoir au "Maroc" à la fin du "Moyen-Age", in *Revue du Monde musulman et de la Méditerranée* , 1988, 2-3, 26-37,notamment 28-30، ويمكن الرجوع على سبيل المقارنة إلى مادة : AL-MAGHRIB، دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الفرنسية الثانية، المجلد الخامس، خاصة الصفحات 1173–1179.

(2) ابن خلدون، كتاب العبر، المجلد السادس، بيروت، 1959، ص 198 و 201–203.

(3) حول تفاصيل هذه النقطة ومادتها المصدرية، راجع : Mohammed Kably, *Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du "Moyen-Age"*, Paris, Maison-neuve et Larose, 1986, 1-15.

(4) حول «حركة عبد المومن الطويلة الأعوام» وخط سير عبد المومن، انظر البيدق، **كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين**، باريز، 1928، ص 90–102وكذا ابن عذاري، **البيان المغرب**..... القسم الثالث، تطوان، 1960، 12–22.

(5) البيدق، المصدر السابق، 105–106 .

(6) المصدر نفسه، 106–112 .

(7) قارن بين ما رواه البيدق حول «غنائم العرب» و«صرفهم إلى بلادهم» من قِبَل عبد المومن بن علي (نفس المصدر، ص 116) وبين فحوى الرسالة الموحدية الرسمية المتعلقة بحملة قسنطينة وانهزام هؤلاء العرب، وهي رسالة مؤرخة بفاتح ربيع الثاني سنة 548 (26يونيه 1153). انظر الرسائل الموحدية، نشر ليفي بروفنصال، الرباط، 1941، الرسالة التاسعة؛ راجع تقديم هذه الرسالة وملخّصها بالفرنسية بمجلة هسبريس (*Hespéris*)، 1941، ص 29 .

(8) حول الإطار الحدثي العام، انظر : R. Brunschvig, *La Berbérie orientale sous les Hafsides*, T. I, Paris, Adrien-Maisonneuve,1940, 20-21; A. Khaneboubi, *Les premiers sultans mérinides*, Paris, L'Harmattan, 1987, 31-33; M. Kably, Société, pouvoir ... *op. cit.*, 24-33.

(9) حول التدابير الموحدية إزاء أهل مكناسة، انظر ابن غازي، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، الرباط، 1384/1964، ص 23–24 ؛ أما بالنسبة لتأكيد حالة التّبوُّر، فيرجع إلى كتاب الاستبصار، الدار البيضاء، 1985، ص 188.

(10) من المعروف أن التحركات العربية وما ترتب عنها على مستوى اللغة والحياة الاجتماعية بالشمال الإفريقي قد حظيت باهتمام خاص من قبل الدارسين أثناء فترة الاحتلال ؛ بالنسبة لأقدم الدراسات، يرجع إلى البيبليوغرافية الواردة ضمن مادة : Al-ᶜARAB، دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الفرنسية الثانية، المجلد الأول، ص 549–550. ويمكن إضافة بعض العناوين المتأخرة نسبيا مع التنبيه إلى تباين نقط الاهتمام واختلاف الزوايا : W. Marais, "Comment l'Afrique du Nord a été arabisée ? (L'arabisation des campagnes)", *Annales de l'Insti-tut d'Etudes Orientales*, Alger. XIV, 1956, 5-17; H. Terrasse, "L'ancien Maroc, pays d'economie égarée", in *Revue de la Méditerranée*, 1947, 37-53; R. Montagne, *La civilisation du désert*, Paris, 1947, notamment pp. 242-246 ; A. Laroui, *L'histoire du Maghreb*, Paris, F. Maspero,1970, 139-146. ؛ وبالنسبة للنقطة الخاصة بنزول قبائل جشم بالسهول الغربية، راجع : G. Marais, Les Arabes en Berbérie du XI^e au XIV^e siècle, Constantine-Paris, 1913, particulièrement pp.191-92,198-199, 327-338, 530-548.

(11) بالنسبة لسياسة الترحيل التي انتهجها المنصور إزاء عرب إفريقية، يلاحظ غياب ذكرها غيابا مطلقا في أقرب الكتابات زمنيا إلى الحدث بما في ذلك الرواية السردية كما ساقها ابن عذاري في البيان، وذلك رغم انعكاس أثر هذه السياسة في وصية هذا الخليفة كما هو مبين في المتن. والغريب أن مؤلف المعجب المعاصر لنفس الخليفة لم يتحدث عنها هو الآخر وكأنه لم يعتبرها من أبرز مآثره. وأغرب من هذا أن صاحب الاستبصار قد وصف بكامل الدقة مختلف مراحل الحملة التي قادها المنصور سنة 583/1187 ببلاد الجريد بإفريقية قبل عملية الترحيل نفسها ولم يذكر شيئا هو الآخر عن هذه العملية؛ أنظر الهامش الموالي أدناه وكذا ابن عذاري، المصدر السابق، 157–171حيث اكْتُفِيَ بالتنصيص على أن المنصور قد «اقام ... بالمهدية ريثما ربط أشغال العرب إلى قوانين يوقّف عليها، قبل رحيله إلى المهدية (ص 170)، وانظر منه أيضا ص 188 بالإضافة إلى عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، القاهرة، 1949، ص 269–276، الاستبصار، 155–160.

(12) ابن عذاري، المصدر نفسه، ص 208.

(13) راجع : M. Kably, *Société, pouvoir*... op. cit.,1-15 et 33-37.

(14) حول استِنْزاف قبائل الخُلْط وسُفْيان، انظر نفس الدراسة، ص 24–33 وحول الجوانب الأخرى، راجع الدراسة نفسها، ص 40–48.

(15) حول حضور عرب المعقل بالريف وظاهرة الزُاحمة، انظر ابن خلدون، المصدر السابق، المجلد السادس، 118–120، 123–124 و132 ؛ عبدالحق البادسي، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، الرباط، 1982، ص 61 ؛ حول حضور المعقل بالغرب وضاحية فاس في نهاية هذه الحقبة، انظرابن عذاري، المصدر نفسه، ص 329–330، ابن خلدون، نفس المصدر أعلاه، ص 535، ابن أبي زرع، روض القرطاس، الرباط، 1972، ص 255.

(16) ينفرد ابن عذاري فيما نعلم بالإشارة إلى ما يسمح بهذه القراءة، انظر البيان، 343.

(17) ابن عذاري، المصدر نفسه، ص 355–356.

(18) انظر : M. Kably, *Société, pouvoir*... op. cit., 11-14.

(19) راجع : Id., 237-242 ainsi que les titres cités en référence.

(20) التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أ. التوفيق، الرباط، 1984، ص 309.

(21) المصدر نفسه، ص 383.

(22) نفس المصدر، ص 409.

(23) عبد الحق البادسي، المقصد الشريف...، ص 61.

(24) نفس المصدر، ص 75.

(25) المصدر نفسه، ص 96.

(26) حول مدينة آنسا ودورها الستراتيجي منذ ما قبل الموحدين، راجع البيدق، المصدر السابق الذكر، ص 76 وخاصة التعليق رقم 4، ص 122 ضمن الترجمة الفرنسية للنص؛ ويمكن الرجوع كذلك إلى الرسالة السابعة عشرة من مجموع الرسائل الموحدية التي سبقت الإشارة إليها في التعليق رقم 7 أعلاه، (انظر تقديم هذه الرسالة وملخصها بمجلة هسبريس، نفس المرجع، ص 41 –43). وحول موقعها الجغرافي ومشهدها الديني المشهور، أنظر محمد المختار السوسي، خلال جزولة، ج 3، ص 173،169 ، 178 وايضا ج 4، ص 154، 173–174 و177–178.

(27) محمد العبدري، رحلة العبدري، الرباط، 1968، ص 8 ؛ وحول مواقع مختلف فصائل عرب المعقل بهذه التخوم وسيطرة ذوي عبيد الله على المنطقة المعنية هنا، راجع ابن خلدون، نفس المصدر، المجلد السادس، ص 119وص 123–124.

(28) المصدر نفسه، ص 9، ابن خلدون، نفس المصدر، المجلد السادس، ص 119 وايضا ص 123–124.

(29) محمد العبدري، نفس المصدر، ص 278.

(30) المصدر نفسه، ص 279.

(31) نفس المصدر، ص 280.

(32) نفس المصدر، ص 4.

(33) حول رأي المنصور الموحدي في إمامة ابن تومرت وعقيدته، أنظر عبد الواحد المراكشي، المعجب،... ص 291 ؛ وحول انفجار الأزمة، راجع : M. Kably, *Société, pouvoir*... op. cit., 20-21.

(34) حول عقيدة ابن تومرت، يرجع على الخصوص إلى : Ignace Goldziher, "Ibn Toumert et la théologie de l'Islam dans le Maghreb au XI^{e} siècle", in *Le livre d'Ibn Toumert*, Alger, 1903, 1-101; R. Brunschvig, "Sur la doctrine du Mahdi Ibn Tûmart", in *Etudes d'Islamologie*, Paris, I, 1976, 281-293 ; id., "Encore sur la doctrine du Mahdi Ibn Tûmart", in *Etudes d'Islamologie*, I, 295-302.

(35) حول الرُّبُط القديمة بالشمال الإفريقي بوجه عام، انظر : G. Marçais, "Note sur les ribâts en Berébrie", *Mélanges René Basset*, Paris,1925,II, 395-430 ; وحول ربُط السهول الغربية القديمة بالمغرب الأقصى، راجع بالنسبة لرباط شاكر، حليمة فرحات وحامد التريكي، كتب المناقب كمادة تاريخية، ضمن التاريخ وادب المناقب، الرباط،1989، 51 –62، خاصة ص 57–60 ؛ اما بالنسبة لكل من رباط كوز(بالكاف المعقودة) ورباط ماسّة، فيُرجع على التوالي إلى : B. Rosenberger, "Note sur Kouz, un ancien port à l'embouchure de l'Oued Tensift", *Hespéris-Tamuda*, 1967, 23-66, notamment 42-55 ; "Mâssa", *Encyclopédie de l'Islam* , (*E.I. 2*), VI, 763.

(36) أنظر محمد القبلي، «حول بعض مضمرات التشوف»، ضمن التاريخ وأدب المناقب، ص 63–80، خاصة ص 71 وما يليها.

(37) راجع عبد الواحد المراكشي، نفس المصدر، ص 289.

(38) حول القاضي ابي بكر بن العربي، انظر القاضي عياض، الغنية، ليبيا–تونس، 1978، 133–139 ؛ النباهي، كتاب المرقبة العليا في من يستحق القضاء والفتيا، القاهرة، 1948، ص 105–107 ؛ المقري، ازهار الرياض، ج 3، الرباط، 1978، ص 95–98.

(39) حول التضييق على المذهب المالكي على عهد يعقوب المنصور أواخر القرن الثاني عشر للميلاد، أنظر عبد الواحد المراكشي، نفس المصدر، ص 278–279 ؛ وحول إفساح المجال للمذهبين الظاهري والشافعي على حساب نفس المذهب، راجع ابن الأثير، الكامل في التاريخ، المجلد الثاني عشر، ليدن، 1853، ص 145–146.

(40) انظر محمد القبلي، «قراءة في زمن أبي محمد صالح»، ضمن الأعمال المنشورة تحت عنوان أبو محمد صالح : المناقب والتاريخ، الرباط، 1990، ص 87–102، خاصة 94–100.

(41) يتعلق الأمر بكل من شيخ طائفة الحاحيِّين ابي زكرياء بن ابي عمرو الحاحي والشيخ أبي زيد عبد الرحمان الهزميري، شيخ طائفة الغماتيِّين او الهزميريِّين. ظهر الأول اواخر القرن السابع للهجرة أو الثالث عشر للميلاد بينما توفي الثاني سنة 706 للهجرة، أي فيما بين سنة 1306 وسنة 1307 للميلاد ؛ انظر ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقير، الرباط، 1965،ص 64–65 وص 69.

(42) ابن قنفذ، نفس المصدر، ص 63–71.

(43) حول بعض المحاولات الحديثة الجادة لتدقيق هذه الميكانيزمات المتعلقة بإنتاج الحكم خاصة في الفترة المدروسة هنا، انظر : M. G. Fletcher, "The anthropological context of Almohad History", *Hespéris-Tamuda*, XXVI-XXVII, 1988-1989, 25-51; C. Hamès, "De la chefferie tribale la dynastie étatique. Généalogie et pouvoir à l'époque almohado-hafside (XII^{e}-XIV^{e} siècles)", in *Al-ansâb. La quête des origines*, Paris, Editions de la Maison des Sciences de l'Homme, 1991, 101-137.

Sur les mouvements de populations au Maroc du milieu du XII^e^ la fin du XIII^e^ siècle

Résumé

Se fondant sur des témoignages aussi variés qu'explicites, cettte communication entreprend d'intégrer les mouvements de populations non plus au pouvoir seul, comme c'est d'usage, mais à l'ensemble du processus menant du social au dynastique et du politico-militaire au socio-religieux au Maroc des XII^e^ et XIII^e^ siècles. De par leur propre dynamique respective et du fait de leur comportement vis-à-vis de l'habitant comme de l'espace, ces mouvements paraissent avoir produit, à tous égards, des effets cumulatifs entraînant, au fur et à mesure, une rupture profonde confirmée notamment par l'ascension contrastée du phénomène de sainteté rurale devenue vite ruralo-citadine et partant préoccupante, de fort bonne heure, pour le pouvoir. Se présentant à la fois comme régulateur et comme expression implicite de rejet, ce phénomène puisa sa sève, au plan local, dans les méfaits multiformes et volontiers excessifs des intrus. D'où le caractére sous-jacent, tout au long de la période, de la rupture. De fait, entamée dès le triomphe, au milieu du XII^e^ siècle, du mouvement sédentaire des Masmda adeptes de la doctrine almohade, cette rupture-support ira s'aggravant sous l'effet d'invasions étalées jusqu'à la fin du siècle suivant et menées sans répit par les mouvements essentiellement bédouins des Hilaliens et des Ma^c^qil, ainsi que par le mouvement pastoral des Mérinides associés à d'autres tribus zénètes.

About the population movements in Morocco from the mid-twelfth to the late thirteenth century

Summary

Based on varied and straightforward accounts, this paper aims to integrate the population movements not into the only power issue, as usual, but into the whole process leading from the social dimension to the dynastic one and from the politico-military aspects to the more global Moroccan socio-religious history in the twelfth and thirteenth centuries. Once identified through their respective characteristics and specific conduct towards the inhabitants and the environment as well, these movements seem to have caused such cumulative effects - in all respects- that they gradually resulted in a very deep break.

This break is more particularly confirmed by the contrasting rise of the rural sanctity phenomenon, which soon extended over urban life and rapidly was thus giving concern to the power. Acting both as a regulator and as an unstated protest, such a phenomenon was locally fostered by the invaders' multiform damaging

effects, which were easily excessive. For all that period, the break was therefore underlying. Indeed, as a support, it was initiated as soon as the sedentary Masmuda Almohads' victory took place in the middle of the XIIth century. Untel the late XIIIth century, it was evidently getting more and more serious because of the Bedouin Banû Hilâl and Ma^{c}qil intervention and considering that of the pastoralist Marinids associated to other Zanâta tribes.



هذا الكتاب هو ثمرة أولى لعمل فريق البحث في تاريخ المجال والسكان بالغرب الإسلامي. وهي مجموعة من الباحثين ذوي تخصصات علمية متعددة ومتداخلة فيما بينها، يجمعهم هاجس مقاربة الإنسان من حيث هو كائن حضاري مقيم بمجال معين له ما له من اللوازم والخصوصيات المؤثرة التي لا تكاد تستحضر حتى الآن بأسلوب معبر مندمج مع الصيرورة التاريخية بوجه عام.

ولا شك أن القارئ سيكتشف من خلال مادة هذا الكتاب صيغة جديدة لممارسة البحث التاريخي، لا تقتصر على الاستعانة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية المعتادة، بل تعمد أيضا إلى الإصغاء لنتائج البحث في ميدان العلوم الطبيعية وغيرها من العلوم البحتة والتجريبية.

